الدَّرس (١٨)، ١٤٢٩

تطْرِيزُ

الشيخ صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

حفظه الله تعالى

خصائص

جزيرة العرب

للعلامة بكر أبو زيد

المتوفى سنة ١٤٢٩ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمْـدُ لله رَبِّنا، وأَشْهَـدُ أَلَّا إلـهَ إلَّا اللهُ وحْـدَه لا شَريكَ لَه، وأَشهَـدُ أنَّ محمَّدًا عَبدُه وَرَسُولُه.

أمَّـا بَـعْدُ.. فهذا هو **الدرس الثامن عشر**، من برنامج **الدرس الواحد السابع**، والكتاب المقروء فيه هو «**خصائص جزيرة العرب**» للعلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقبل الشروع في إقرائه لابد من ذكر مقدمتين اثنتين:

المقدِّمة الأولىٰ: التعريف بالمصنِّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: جر نسبه؛ هو الشيخ العلامة بكر ابن عبد الله بن محمد أبو زيد القضاعي، يُكنىٰ بأبي عبد الله.

المقصد الثاني: تاريخ مولده؛ ولد سنة خمس وستين بعد الثلاثمائة والألف (١٣٦٥).

المقصد الثالث: تاريخ وفاته؛ توفي في يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من محرم الحرام، سنة تسعٍ وعشرين بعد الأربعمائة والألف (١٤٢٩)، وله من العمر أربعٌ وستون (٦٤) سنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة.

المقدِّمة الثانية: التعريف بالمصنَّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد أيضا:

المقصد الأول: تحقيق عنوانه؛ طبع هذا الكتاب تحت نظر مصنفه باسم «خصائص جزيرة العرب».

المقصد الثاني: بيان موضوعه؛ موضوع هذا الكتاب هو الإفصاح عن الخصائص التي امتازت بها جزيرة العرب.

المقصد الثالث: توضيح منهجه؛ رتب المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه في فصولٍ عرض فيها مقاصد القول في تلك الخصائص، وربما ترجم في أثناء فصلٍ من تلك الفصول، ونسج الكتاب في صياغة أدبية رفيعة، عظُم بها قدره، فإن الحق إذا كسي حكمة وبيانا وجد في النفوس قبولًا.

قال المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحمد لله تعالىٰ حق حمده، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وأشهد أن محمدا عبد الله ونبيه ورسوله ومصطفاه من خلقه. اللَّهُمَّ صل وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه، ومن اهتدىٰ بهديه واستن بسنته.

أما بعد؛ فهذا بيان للناس عن أصل من أصول الملة، عن دار النصرة والقبلة، حبيبة المسلمين، عدوة الكافرين، عن الدار الأولىٰ لظهور الإسلام والخط الأخير في غرة الوجود الإسلامي: جزيرة العرب؛ في حدودها، وحدود الحجاز، وخصائصها في الإسلام، والضمانات الحافظة لها. أفردتها لـمَّا رأيتها عند الأكثرين من السنن المهجورة، مع أن تلك الخصائص معلومة مشهورة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أفردتها لما رأيتها عند الأكثرين من السنن المهجورة) قيدٌ حسنٌ في إطلاق الحكم علىٰ سنة ما بأنها مهجورة، فلا ينبغي للمرء أن يتجاهر بالحكم علىٰ شيء من المأثور بأنه سنة مهجورة إلا بقيد الإخبار بحسب علمه، كأن يقول: إنها سنة مهجورة فيما علمنا من حال الناس، أو أن يقول: إنها سنة مهجورة عند الأكثرين.

أما التجاهر بالجزم بأنها سنة مهجورة بحيث تخلو منها البسيطة فهذا.. إلىٰ علم كامل ولا يكن علم في مثل هذا إلا لربنا عَزَّوَجَلَّ.

وأن الله سبحانه جلت حكمته قد رتب أحكام هذه الدنيا علىٰ أسباب ظاهرة، ولم يجعلها قدرية محضة، وإن دين الإسلام هو قدر الله في هذه الجزيرة؛ قاعدة انطلاقة إلىٰ كل الخليقة في المعمورة وهو من الظهور والوضوح بمكان، وأحكام هذه الجزيرة فيه كذلك؛ بل هي من آخر ما عهده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –وهو علىٰ فراش الموت– إلىٰ أمته.

وإنك إذا أدرت النظر في سبب هجرها –عند الأكثرين–؛ رأيته أثرا من آثار موجة الفتور التي تمر بالمسلمين؛ من ضعف الحس، والغفلة عن تنشيطه صُعُدًا إلىٰ الترقي في مدارج الإسلام، والإبقاء علىٰ امتيازات داره وكيان أهله؛ عبر جسور شرعية من الكتاب والسنة.

ورأيته امتدادا لحبل التراخي من عرب هذه الجزيرة عن وجودهم القيادي في العالم، إذ غرقوا في

الترف، والملذات، والتهام الأموال، والتقلب في عدة أوجاع؛ ولا تدري مكان الوجع منها !

وجماع التراخي والفتور: ضعف الإيمان في النفوس، وسكرة الركون إلىٰ الحياة وشهواتها، فآلت السابلة إلىٰ ما ترىٰ.

ومن شِداد ولائده: أسر النفوس عن توثبها بالحق لنصرته؛ مضغوطا عليها من كل جانب: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم].

وهذا البيان تذكرة باحثة عن خصائص الجزيرة وسبل حمايتها، ثم تنزيل وسائل الإصلاح والاستصلاح، وبعث الهمم علىٰ إعمالها وتخليصها من الأدواء التي دبّت إليها:

أيهـــا المصـــلح مـــن أخلاقنـــا أيهـــا المصـــلح الـــداء هنـــا

فإذا خَلَصت من الأدواء؛ بقي الإسلام في حضانة أهله؛ تشع أنواره، وتظهر شعائره، وتقام الشريعة، وتؤمن السابلة، وهذا هو الدين كما قال حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ومـــا الـــدين إلا أن تقـــام شـــرائع وتـــؤمن ســـبل بيننـــا وهضـــاب

وبها تبقىٰ دارهم مركزا للإسلام، ودار قيادة للعالم الإسلامي.

وبها يبقىٰ أهلوها قدوة لأهل القبلة؛ قياديين عربا مسلمين؛ يحمون حمىٰ الدين، وينافحون عنه.

ومن هنا يتضح للبصراء بجلاء منزلة هذا الأصل العقدي، وضرورة إحياء ما هجر من خصائصه، وبعثها من مرقدها؛ ليروا كيف منحت الشريعة هذه الجزيرة شخصية مستقلة؛ في قيادتها، وأرضها، وأهلها، ودعوتها؛ علىٰ رسم منهاج النبوة لا غير.

وإنه إذا ما عدَّت يوما نفسها مثل أي قطر من الأقطار، ترضىٰ بمداخلة ما هو أجنبي عن الإسلام؛ فإنها تعمل علىٰ إسقاط نفسها من سجل التاريخ، وتقضي علىٰ ميزتها البارزة في خريطة العالم، فيخفت احترام العالم الإسلامي لها، وتفقد رهبة شراذم الكفر منها، وتفتح مجالا فسيحا للقوىٰ الشريرة العاتية.

وإنه إذا تقدمت الفتن، والبدع، والأهواء، والنحل، وضروب الغزو الفكري؛ تضرب فارهة علىٰ صخرة هذه الجزيرة؛ فقد تجللت حينئذ من كل ويلٍ تيارا، وأذنت بمشاكل ذات أحجام مختلفة في التمرد، وإذا تشربت النفوس بهذه الأنماط المتناثرة علىٰ جنبتي الصراط المستقيم؛ تشكلت الحياة إلىٰ مزيج من الأهواء والضلال البعيد.

وهذا إيذانٌ بدك آخر حصن للإسلام، وتقليص لظله عن معاقله في هذه الجزيرة المسكينة.

فالله طَلِيبُ الفَعَلةِ لذلك، وهو حسيبهم.

وإذا نفذت أنوار البصيرة إلىٰ هذا الأصل العقدي وخصائصه؛ فلابد من إدارة النظر آخرًا بالضمانات الحافظة الحامية لها؛ تبصرة لمن بسط الله يده علىٰ أي من هذه الجزيرة ولمن شاء الله من عباده، ولطمًا لهذا الزحف المهول والموجات الطاغية المدفوعة بذمم فاسدة؛ لصدِّها عن هذه الجزيرة وأهلها، والرقابة اليقظة علىٰ صنائعها الرابضين في مغارات الجزيرة؛ حاملين بصمات العداء والاستعداء؛ يعملون في الجهر والخفاء، ويهيئون الأجواء لاستقبال الثقافات الهادمة لعقول أبناء هذه الجزيرة؛ في مجالات: العلم، والسلوك، والأخلاق، والإعلام، والاقتصاد.

وعليه؛ فإذا كنا من هنا نعلم أحكام هذه الجزيرة؛ فمن هنا -أيضا- نبدأ فننادي أهل العلم والإيمان أن يفيضوا علىٰ أمتهم بساعات من الاكتساب للاحتساب -و«الدين النصيحة»-؛ استنهاضا للموحدين علىٰ مواضع الفتور وسبل الغواشي التي غشيت التوحيد وأوهنت أخلاقيات هذه البلاد، وإحياءً لما تآكل من معالم هذا الدين.

والحديث عن خصائص هذه الجزيرة واحدة منها.

وقد عَنَيْتُ الإيجازَ؛ لأن القصد غرس هذه النعمة في أفئدة أبناء هذه الجزيرة؛ يحدو ذلك الحميَّة؛ لله، ودينه، وشرعه؛ ليس إلا.

والله المستعان.

بكر بن عبد الله أبو زيد

مدينة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ

٢٥ / رمضان / ١٤٠٩

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ ههنا (بكر بن عبد الله أبو زيد) إلىٰ آخره، علىٰ خلاف ما جرىٰ عليه في بعض كتبه من كتابة وكتب، بكر بن عبد الله أبو زيد وذلك هو الموافق للمروي في كتب الصحابة فمن بعدهم.

وقد ذكر ابن حجر في ترجمة عقبة بن عامر من «تهذيب التهذيب» أنه رأىٰ مصحف في مصر بخط عقبة بن عامر آخره وكتب عقبة بن عامر، فالأولىٰ تقديم هذا الفعل، لأن إثبات الاسم ههنا بدون فعل لا يدل علىٰ مقصود، لكن إذا قيل: وكتب فلان بن فلان كان ذلك سائغًا في اللغة، وكذلك هو موافق لعمل السلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ.

الفصل الأول

المؤلفات عن جزيرة العرب

للعلماء يدٌ حافلة في التأليف عن صورة الأرض، والتي سماها بعضهم (جَغْرافيا)، ومعناه: صورةُ الأرضِ. وقد عُرِّبَ في عصرنا الحاضر إلىٰ: علومِ الأرضِ.

وقد دوَّنوا في مؤلفاتهم هذه ما وَسِعَهم عن البلاد والممالك... إلخ، وفي خصوص جزيرة العرب تفننوا في التأليف عنها؛ في: الأماكن العربية، والمنازل البدوية، والدِّيارات، والدّارات، والمياه، والمناهل، والجبال، والأودية، والآبار، واشتقاق أسمائها، وأنساب أهلها... وهكذا مما يستَلَذُّ ويستطاب، حتىٰ صارت – ولله الحمد – محفوفةً محفوظةً؛ بعلمٍ، ووصفِ عيانٍ، ومشاهدةٍ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والديارات) هو جمع دار وهو المحلة التي تجمع بناءً وقوله: (الدارات) جمع دارة، وهي كل أرضٍ واسعة بين جبلين، وقد ذكر الفيروز آبادي في القاموس المحيط أن دارات العرب تنيف علىٰ مائة وعشر، ثم عدها رَحِمَهُ ٱللَّهُ واحدة واحدة، وذكر أن هذا من ضنائن العلم التي اعتنىٰ بتحصيلها وجمعها فظفر بما لم يظفر به غيره، فإلحاق ما ذكره الفيروز آبادي في القاموس في هذا الموضع مناسب لمقصود الكتاب.

وقد تجاوز البحثُ هذه الطبقةَ من الأدباء والبُصراء بعلوم الأرض إلىٰ طبقةِ الفقهاءِ، والمحدثينَ، والمؤرخين؛ لما يتعلق بهذه الجزيرةِ المباركة من أحكامٍ شرعيةٍ.

فتكاثرتِ المؤلفاتُ عن مكةَ، والمدينة –حرسهما الله تعالىٰ– ومسجديهما –زادهما الله شرفا–، وعن سائرِ أقاليمِ الجزيرة: الحجازِ، ونجدٍ، والعَرُوضِ، وتِهامَةَ، واليمنِ، وعُمانَ.

والمحدِّثون يذكرونها في شروحهم لأحاديث إخراج المشركين من جزيرة العرب؛ كما في «الصحيحين» وغيرهما.

والفقهاء يذكرون جملةً وافرة من أحكامها في أبواب: الصلاة، والحجِّ، والجهاد، وأحكام أهل الذمة، وفي كتب الأحكامِ السلطانيةِ.

والشأن هنا في ذكر بعض المؤلفات المفردة عن هذه الجزيرة علىٰ اختلاف مقاصد المؤلفين:

١. «جزيرة العرب» للهَمْداني.

٢. «أسماء جبال تهامة وسكانها»، لعرّام بن الأصبع.

٣. «بلاد العرب»، لِلُغْدَة: الحسن بن عبد الله الأصفهاني.

٤. «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز»، لابن المجاور.

٥. «جغرافية شبه الجزيرة العربية»، محمود طه أبو العلا.

٦. «صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار»، محمد بن بليهد النجدي.

٧. «جغرافية الصحارىٰ العربية»، صلاح بحيري.

٨. «حوض الخليج العربي»، محمد متولي.

٩. «التنبيه علىٰ ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب»، للكوكباني المتوفي سنة ١٣٤٣.

١٠. «قلب الجزيرة العربية»، فؤاد حمزة.

١١. «جزيرة العرب في مؤلفات علماء المغرب»، حمد الجاسر في المجلدات (٤ و٥ و٦) من «مجلة العرب».

١٢. «كيف دون العرب جغرافية جزيرتهم»، حمد الجاسر «مجلة جامعة الملك سعود»، العدد الأول، عام ١٣٧٩، الرياض.

١٣. «الأقسام الجغرافية لجزيرة العرب»، عبد المحسن الحسيني، «مجلة كلية الآداب» بالإسكندرية، في عام ١٣٧٢.

١٤. «أقاليم الجزيرة العربية»، عبد الله بن يوسف الغنيم. (١)

١٥. «جزيرة العرب / من كتاب المسالك والممالك للبكري»، أخرجه عبد الله بن يوسف الغنيم.

١٦. «العرب والإسلام» لأبي الحسن الندوي.

١٧. «كيف ينظر المسلمون إلىٰ الحجاز وجزيرة العرب»، للشيخ أبي الحسن الندوي، طبع دار الاعتصام بمصر.

١٨. «إلىٰ أين تتجه الجزيرة العربية وإلىٰ أي غاية تنتهي؟» للشيخ أبي الحسن الندوي، مطبوع علىٰ

---

(١) لماذا عبدُ الله؟ لماذا الرفع؟ عبدِ اللهِ. التقدير نزع الخافض: لعبد الله بن يوسف، هذا التركيب يستغرب علىٰ الشيخ بكر ذكر الكتاب يقول عبد الله بن يوسف، الجزيرة العربية عبد الله بن يوسف. العرب والإسلام لأبي الحسن الندوي هذا هو الصحيح، هذا هو التركيب اللغوي الصحيح أما ما سبق فيه نظر.

الآلة الراقمة.

١٩. «لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب؟»، أحمد موسىٰ سالم، طبع دار الجيل، بيروت.

٢٠. «اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب»، محب الدين الخطيب، طبع عام ١٣٤٤.

٢١. «الدعوة إلىٰ الله في جزيرة العرب»، سعد الحصين.

٢٢. «دراسة في مصادر الجزيرة العربية». لأبي علية.

٢٣. وفي مجلات «العرب» و«الدارة» و«الوثيقة» بحوث عنها.

٢٤. وعُقِدَ في جامعة الملك سعود بالرياض ندوات عام ١٣٩٧.

فما بعد عن مصادر تاريخ الجزيرة.

الفصل الثاني

أسماء الجزيرة وأقاليمها

* أسماء جزيرة العرب:

كثرة الأسماء تدل علىٰ شرف المسمىٰ، ولهذه الجزيرة جملةُ أسماءٍ؛ كلُّها مضافة إلىٰ "العرب"، لا غير:

- منها اسمان هما: (جزيرة العرب)، و(أرض العرب) وقد وردا في السنة واستعمالات الفقهاء.
- ومنها: (بلاد العرب)، و(ديار العرب).
- ويقال الآن: (الجزيرة العربية)، و(شبه جزيرة العرب)، و(شبه الجزيرة العربية).

وهي تلكم الأرض المباركة التي اكتسبت شرف الإضافة إلىٰ سكانها، المحفوفة حواشيها بثلاثة أبحر؛ صيانةً لها عن تكاثرِ الدخلاءِ عليها؛ كما في حَمْدَلَةِ أعرابيٍّ ذكرها الجاحظ في «البيان والتبيين»:

"الحمد لله الذي جعل جزيرة العرب في حاشيةٍ، وإلا؛ لَدَهَمَت هذه العُجْمانُ خضراءَهم ".

و(الجزيرة): ما جزر عن البحر؛ قال ابن دُرَيدٍ: "سُميت جزيرةً؛ لانقطاعها عن معظم الأرض"

وأصل الجزر: القطع، ومنه سمي الجزار، جزارًا؛ لقطعه أعضاء البهيمة.

* أقاليمها:

واحدها: إقليم، وهو: كل ناحية مشتملة علىٰ مدن وقرىٰ، وهو أشهر الاصطلاحات، ومنها: (الرستاق) لدىٰ أهل الشام، و(المِخلاف) لدىٰ أهل اليمن، ومنها: (الكُورُ)، وغيرها.

وللعرب في تقسيم جزيرتهم –بحسب صورة الأرض، ومناخها، ونباتها_ خمسة أقاليم:

١. إقليم تِهامةَ: ويقال: الغَوْر، ويقال: غَوْر تهامة، وهما بمعنًىٰ.

٢. إقليم الحجاز: ويقال: السَّراة، وقيل: السراة اسم للجزء الجنوبي من جبال الحجاز.

٣. إقليم نجد.

٤. إقليم اليمن: وقيل: سمي يمنا لأنه عن يمين الكعبة.

٥. إقليم العروض: ويقال: اليمامة.

٦. إقليم عمان: وقيل: داخل في إقليم اليمن.

الفصل الثالث

حدود جزيرة العرب

* حدود جزيرة العرب علىٰ العموم:

كما أن شبه جزيرة العرب أكبر شبه جزيرة في العالم، فقد حماها الله تعالىٰ بثلاثة أبحر من جهاتها الثلاث: غربا، وجنوبا، وشرقا.

فيحدها غربا: بحر القُلْزُم – و(القلزم): مدينة علىٰ طرفه الشمالي–، ويقال: بحر الحبشة، وهو المعروف الآن باسم: البحر الأحمر.

ويحدها جنوبا: بحر العرب، ويقال: بحر اليمن.

وشرقا: خليج البصرة؛ الخليج العربي.

والتحديد من هذه الجهات الثلاث بالأبحر المذكورة محل اتفاق بين المحدثين، والفقهاء، والمؤرخين، والجغرافيين، وغيرهم.

وممن أفصح عن هذا التحديد بالنص: ابن حَوْقَل –وأطلق علىٰ الأبحر الثلاثة اسم: بحر فارس–، والاصطخري، والهمداني، والبكري، وياقوت، وهو منصوص الرواية عن الإمام مالكٍ، وتفيده الرواية عن الإمام أحمد؛ رحم الله الجميع.

الحد الشمالي: ويحدها شمالا ساحلُ البحرِ الأحمر الشرقيُّ الشماليُّ وما علىٰ مسامتته شرقا؛ من مشارف الشام وأطراره (الأردن حاليا) ومُنْقَطَعُ السماوةِ من ريف العراق، والحدُّ غير داخل في المحدود هنا.

وبهذا قال الأصمعي، وأبو عبيدة.

وهذا هو ما حرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فقال: "جزيرة العرب: هي من بحر القُلزم إلىٰ بحر البصرة، ومن أقصىٰ حِجْرِ اليمامة إلىٰ أوائل الشام، بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل فيها الشام، وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله..." انتهىٰ مختصرا.

هذه هي الحدود الطبيعية بمعالمها الظاهرة –ثلاثة أبحر– غربا وجنوبا وشرقا؛ وهي تحديد جغرافي يلتقي فيه الفقهاء مع غيرهم.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ههنا حدود جزيرة العرب، وذكر الاتفاق علىٰ حدها الغربي والجنوبي والشرقي، وبقي الإشكال في حدها الشمالي، فقدر هو أن حدها شمالًا ساحل البحر الأحمر الشرقي؛

يعني في حق من كان في نفس البحر سار الجهة الشرقية من البحر الشرقية الشمالية هي الحد من جهة الشمال، ثم ما سامتها علىٰ هذا الاتجاه، وليس المقصود الشرقي لمن كان دون البحر بل الشرقي الشمالي لمن كان في البحر، فإذا كان في البحر كان أعلىٰ البحر الأحمر هو الشرقي الشمالي بالنسبة إليه.

ثم ما كان علىٰ مسامتته شرقًا علىٰ مشارف الشام، وكل المتكلمين في هذه المسألة يذكرون أن الجزيرة تنتهي شمالًا إلىٰ مشارف الشام؛ لكن العبارات التي توجد في كتب معجم البلدان ككتاب ياقوت والبكري وغيرهما لا تفصح عن حدٍّ تنتهي إليه جزيرة العرب ثم ينتقل منه إلىٰ بلاد الشام؛ بل تجدهم يقولون في تبوك مثلًا هي مدنيةٌ بين الحجاز والشام، ويعبر بعضهم ويقول: هي علىٰ مشارف الشام، ثم لا يتميز حدُّ مشارف الشام؛ هل حد مشارف الشام ما كان من تبوك فما بعدها أو أنه يتأخر عنها؟

وهذه المسألة ارتضىٰ المصنف فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجمال، فقال: (وما علىٰ مسامتته شرقًا من مشارف الشام وأطراره) وجعل حده بلاد الأردن، وهذا الحد الجغرافي في تحديد حدود البلدان لا تعلق له بالحدود التي جاءت بها الشريعة فليس الحد الجغرافي التي اتفقت عليه الدول حاكمًا علىٰ الحد الشرعي الذي قدرته الشريعة.

ثم ذكر أن هذا هو قول الأصمعي وأبو عبيدة وهو الذي حرره شيخ الإسلام، وكلام شيخ الإسلام ههنا إنما فيه قوله: (ولا تدخل فيها الشام)، لكن أي حدٍ تبتدئ منه الشام وتنتهي إليه جزيرة العرب؟ واضح الإشكال أم غير واضح؟ طيب ما هو الحد؟

الحد حرره شيخ الإسلام ابن تيمية وهذا نص فات المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفات غيره ممن تكلم في حدود الجزيرة، فإن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ذكر في «مجموع الفتاوىٰ» **أن الحد الفاصل بين جزيرة العرب وبين الشام هو عقبة الصوّان**، وهي عقبة من حجارة معروفة، تكون بعد الصحراء التي تلي تبوك، فإن بعد تبوك صحراء عظيمة في تلك الجهة، قال عنها ابن بطوطة في رحلته وهي التي يقول عنها الناس: من دخلها مفقود ومن خرج منها مولود.

فإذا تناهت هذه الصحراء إلىٰ عقبة الصّوّان كان ما دون العقبة من جهتنا هو من جزيرة العرب وما بعدها هو من بلاد الشام، وأول بلاد الشام هي بلدة معَن، وهي فيما يسمىٰ بالكرك، فما كان في هذا الحد فما روائه فهو شاميٌ، وما كان دونه فهو من جزيرة العرب.

كنت أقول للإخوان قديمًا: إن الإنسان يتوقف في مسألة تبوك، لأنه في السيرة يقولون عن تبوك غزة إيش؟ غزة الشام، فأكثر نقلة السيرة يجعلونها غزوة للشام لا باعتبار أن تبوك من بلاد الشام؛ ولكن باعتبار أن الولاية التي كانت جهتها هي ولاية أهل الشام وهم الروم، أما علىٰ التحقيق الذي ذكرنا فإن تبوك من جزيرة العرب وليست من الشام.

ولهذا التحديد بالمياة الإقليمية الثلاثة صارت تعرف عند المتأخرين باسم (شبه جزيرة العرب)، وإنما قيل: (جزيرة العرب)؛ بحكم إحاطتها بثلاثة أبحر، ولأن الحد الشمالي، وإن كان إلىٰ مشارف الشام وريف العراق؛ فإن ما وراء ذلك من أنهار: بَرَدىٰ، ودِجلَةَ، والفراتِ، متصل برأس الخليج العربي فكأن التجوُّز في الإطلاق بحكم المجاورة.

ولذا قال الخليل: "إنما قيل لها (جزيرة العرب)؛ لأن بحر الحبشِ، وبحر فارس، والفرات قد أحاطت بها، ونسبت إلىٰ العرب؛ لأنها أرضها، ومسكنها، ومعدِنُها" انتهىٰ.

ونحوه ذكره الباجي عن الإمام مالك.

بل دفعت محمدَ بنَ فَضالة فيما رواه عنه الزبير بن بَكَّارٍ إلىٰ أوسعَ من ذلك، فبلغ بالتحديد شمالا إلىٰ مشارف النيلِ، فقال: "حدثني محمد بن فضالة: إنما سميت جزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها..."

ثم أخذ في البيان بما يفيد دخول الشام وسواد العراق...

وبما أن هذا الحد الشمالي لجزيرة العرب مفتوح؛ لأنه تحديد بأرض، دون أن تكون به ثمة معالِمُ؛ من أنهارٍ، أو بحار، أو جبال، ونحوها، فتكون فيصلا في التحديد؛ صار الإدخال والإخراج الجزئي لما وإلىٰ التحديد المذكور شمالا.

وقد وهم من مَدَّ مسمىٰ جزيرة العرب شمالا إلىٰ دِجلة والفرات وعَنَقَ النيل؛ فإن المضاف إليه: (العرب) -في تسميتها: جزيرةِ العربِ- يحدّد المراد، إذ قد علم في امتداد العرب، ومنازل القبائل، واضطرابهم بين الظعن والإقامة، ومواقع الخفارة: أنهم لم يتجاوزوا ما تقدم رسمه في الحد شمالا.

وعليه؛ فالأردُنُّ، وسوريّا، والعراقُ؛ ليست في محدود أرض العرب (جزيرة العرب) التي عرفت بهم في ظعنهم وإقامتهم.

ولذا قال الإصطَخْريُّ: "وقد سكن طوائف من العرب -من ربيعة ومُضَرَ- الجزيرة، حتىٰ صارت

لهم بها ديارٌ ومزارعُ، ولم أر أحدا عزىٰ الجزيرة إلىٰ ديار العرب لأن نزولهم بها -وهي ديار لفارس والروم- في أضعاف قرىٰ معمورة، ومدن لها أعمال عريضة، فنزلوا علىٰ خفارة فارس والروم حتىٰ إن بعضهم تنصر بدين النصرانية مع الروم مثل: تغلب من ربيعة بأرض الجزيرة، وغسان وبراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام" انتهىٰ.

وهذا نص يفيد برد اليقين علىٰ أن من نزح من العرب -كالغساسنة إلىٰ الشام، وربيعة ومضر في جزيرة ابن عمر التغلبي (الجزيرة الفراتية)-؛ فإن ذلك لا يُدخِل مضارب نزوحهم إلىٰ مسمىٰ منابت أصولهم (جزيرة العرب)، وهذا واضح.

وبحكم المدلول اللفظي في هذه الإضافة إلىٰ (العرب)، فهي تعني منابتهم ومرجع أصولهم، لا مواطن رحلتهم إلىٰ المشارق والمغارب، والله أعلم.

وقد حصل من وراء ذلك خلاف في هذا الحد الشمالي، والسبب -والله أعلم- عدم وجود فواصل (تضاريسية) تقطع القول بالتحديد بمعلم ظاهر كالشأن في الجهات الثلاث إذا أحاطت بها البحار.

وإذا نظرت في الاختلاف – بعدُ - رأيته يرجع إلىٰ أحد سببين:

الأول: المدلول الولائي (السياسي)، فجزيرة العرب عنده: مالم يبلغه ملك فارسَ والرومِ.

الثاني: المدلول العمراني فيما بلغته العرب بسكناها ومنازلها ومرعاها وخَفَارتها علىٰ ديارها وأقاليمها.

ومن هذه الأقوال ما لو أخذ علىٰ ظاهره لكان سبيله الرفض وعدم القبول؛ كقول: (جزيرة العرب: المدينةُ وما والاها)، وهكذا... وسنعلم توجيه هذه الخلافات في هذين التنبيهين:

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر الصفحة السابقة: (وقد حصل من وراء ذلك خلاف في هذا الحد الشمالي والسبب والله أعلم عدم وجود فواصل تضاريسية تقطع القول بالتحديد بمعلم ظاهر) هذا بحسب ما ظهر له من بحثه، وبحسب ما نقلنا عن شيخ الإسلام ابن تيمية تكون هذه العقبة ظاهرة تضاريسية تفصل بين الجزيرة العربية وبين الشام.

التنبيه الأول:

في المروي عن بعض الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ ما ظاهره التعارض في مسمىٰ (جزيرة العرب)؛ من حيث الإدخال والإخراج في أقاليم هذا المحدود.

- فعن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ثلاث روايات:

١. رواية ابن وهب عنه: أنه قال: "أرض العرب: مكة، والمدينة، واليمن " ومثله قال المغيرة بن عبد الرحمن.

٢. رواية الزهري عن مالك قال: "جزيرة العرب: المدينة، ومكة، واليمامة، واليمن". واليمامة كانت داخلة في عمل المدينة، وكان أمرها مضطربا حسب الولاية في العصرين الأموي والعباسي، فأحيانا تضاف إلىٰ المدينة، وأحيانا تفرد برأسها.

٣. ما ذكره الباجي؛ قال: قال مالك: "جزيرة العرب: منبت العرب قيل لها: جزيرة العرب؛ لإحاطة البحور والأنهار بها ".

ومافي هذه الرواية الثالثة يلتقي مع التحديد المذكور.

وما في الروايتين قبلها؛ يعني: ما كان عامرًا، مشمول الولاية بالجملة وهذا يلتقي مع مفهوم من سبق من السلف لمسمىٰ جزيرة العرب.

- وفي «صفة جزيرة العرب» للهمداني عن ابن عباس، وفي «المسالك والممالك» للبكري عن شرقي ابن القطامي وغيره: "كانت أرض الجزيرة خاوية، ليس في تهامتها ونجدها وحجازها وعروضها كبير أحد؛ لإخراب بُخْتُنَصَّر وإجلائها من أهلها؛ إلا من اعتصم برؤوس الجبال وشعابها".

- وهكذا الشأن في الرواية عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

١. ففي رواية بكر بن محمد عن أبيه؛ قال: سألت أبا عبد الله -يعني: الإمام أحمد- عن جزيرة العرب؟

فقال: "إنما الجزيرة موضع العرب، وأي موضع يكون فيه أهل السواد والفرس؛ فليس هو جزيرة العرب، موضع العرب: الذي يكونون فيه".

٢. وفي رواية ابنه عبد الله عنه؛ قال: "سمعت أبي يقول في حديث: "لا يبقىٰ دينان في جزيرة العرب": تفسيره: ما لم يكن في يد فارس والروم. قيل له: ما كان خلف العرب؟ قال: نعم".

٣. ورواية ثالثة في «المغني»؛ قال: "قال الإمام أحمد: جزيرة العرب: المدينة وما والاها".

فالروايتان الأولىٰ والثانية تلتقيان في محدود جزيرة العرب؛ لأن العرب كانت منتشرة في الظعن والإقامة والرعي والخفارة في قلب هذه الرقعة، وما أَسْحَلَتْهُ بحارها الثلاثة.

والقول في الرواية الثالثة؛ كالشأن في توجيه الرواية عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وتقدم.

وعليه؛ فإن من عد اختلاف الرواية عن هذين الإمامين اختلافا يوجب تكوين رأي في مسمىٰ (جزيرة العرب) من قصرها علىٰ مكة والمدينة فقد أبعد.

وبهذا يتضح بجلاء التقاء الفقهاء مع الجغرافيين والمؤرخين في حدود جزيرة العرب.

التنبيه الثاني:

المياه الإقليمية لجزيرة العرب وما فيها من الجزر تابعة لجزيرة العرب.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: "لا يمنع أهل الذمة من ركوب بحر الحجاز -أي علىٰ سبيل العبور، ويمنعون من المقام في سواحله، وكذا إن كانت في البحر الحجاز جزائرُ وجبالٌ تُسكن؛ منعوا من سكناها؛ لأنها من أرض الحجاز" انتهىٰ.

وعليه فإن (البحرين) يتبع الجزيرة، فتجري عليه أحكامها.

قرر المصنف في هذه الجملة حدود جزيرة العرب، ثم حقق في أثناء بحثه هذا أن هذا الاسم اكتسبته من مدلول وضعها؛ لأن هذه البقعة من الأرض هي منبت العرب فلأجل كونها منبتًا للعرب سميت نسبة إليهم جزيرة العرب.

وهل تسمىٰ جزيرة الإسلام؟ قال لي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولم أسمها جزيرة الإسلام، لأن الذي جاء في الأحاديث هو تسميتها جزيرة العرب. انتهىٰ كلامه.

والسر في ذلك والله أعلم هو تحريض العرب علىٰ اللصوق بهذه الأرض لأنها منبتهم وإذا نسبت إليهم قوي حبها في قلوبهم، فكان في ذلك حفظًا للإسلام، لأن أولىٰ الناس بحفظ الإسلام وأقدرهم علىٰ ذلك هم العرب، كما جاءت بذلك الأحاديث وانعقد الإجماع علىٰ تفضيل جنس العرب علىٰ غيرهم، فالإبقاء علىٰ هذا الاسم وهو جزيرة العرب اتباعٌ للنص الوارد وامتثالٌ لما يقتضيه النظر من امتياز هذه الأرض بسكنىٰ العرب وما لهم من خصائص سيأتي ذكرها فيما يستقبل من كلام المصنف.

وكان المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ذا بصرٍ نافذ في اختيار الألفاظ المعبرة عن الحقائق، فإنه قال لي أيضًا عن كتاب «المثامنة في العقار» إنما سميته أخذًا من حديث ثامنوني حائطكم هذا، وإن كان الفقهاء يسمونه نزع العقار، فسمىٰ بحثه بهذا الاسم أخذًا من الحديث الوارد، وهذا هو اللائق بالعلم الكامل ان يقتبس الإنسان من النصوص وأن يبني عليها لأن ما في النصوص أكثر إغناءً مما يخرج عنها.

* حدود الحجاز:

(الحجاز) -في اللغة-: الحدُّ الفاصل.

وفي سبب تسميته توجيهان:

الأول: سميت الحجاز حجازا؛ لأنها قد احتُزِمَت واحتجزت بالجبال، أو بالحرار، أو بهما، فسميت حجازا، فهو من الاحتجاز؛ بمعنىٰ: شدِّ الوسط بالحُجْزَة، أو بالحجاز.

الثاني: أو لأن جبالها وحرارها قد حجزت بين نجد والسراة، أو بين نجد واليمن، أو بين نجد -وهو ظاهر- وبين إقليم تهامة -وهو غائر-، أو بين الشام والغور، فسميت بذلك حجازا.

والحجاز حجازان:

١. حجاز المدينة: وهو ما حجزته الحِرار، والحرار الحاجزة: هي خيط من حجارة سوداء، تمتد من الجنوب إلىٰ الشمال في سلسلة متتابعة، فتتسع أحينا، وتضيق أحيانا في مواضع.

وهي من الجنوب مما يلي مكة إلىٰ المدينة شمالا فتبوك: حَرَّةُ بني سُليمٍ، فحرة واقمِ، فحرة ليلىٰ، فحرة شَوْران، فحرة النار، وهي أطولها مسافة.

٢. الحجاز الأسود: وهو ما حجزته الجبال، وهي: سَرَاةُ شَنوءةَ.

وسلسلة جبال السراة هذه هي أعظم جبال في بلاد العرب.

و(السراة): أعلىٰ الشيء؛ كما يقال لظهر الدابة: السَّرَاةُ.

وتمتد من جَبَل تثليثَ جنوبا إلىٰ الطائف في الشمال.

تنبيه:

هاهنا نقلان غريبان:

أحدهما: فيما نقله ياقوت عن ابن الكلبي: أن الحجاز ما يحجز بين تهامة والعروض واليمن.

وهذا متعذر جغرافيا لكن لعله حصل تطبيع وخلط في العبارة، صحَّتُها: "ما يحجز بين تهامة واليمن، وبين العَروضِ".

الثاني: ما رواه الزبير بن بكار، عن عمه: "أن معنىٰ الحجاز وجَلْس واحد".

وعن رجل لم يذكر اسمه: "أن معنىٰ الحجاز وجلس ونجد واحد".

وهذا متعذر جغرافيا أيضا.

وقد يكون المراد بهذين: التقسيم الإداري آنذاك. والله أعلم.

ومن هذه التقدمة تعرف بَرَكَ الحجازِ بالجملة: مكةَ، والمدينة، ومخاليفهما، وتلك الحرار، وما انحاز عنها غربا إلىٰ ساحل البحر الأحمر.

وإذا كان الحجاز معروف العين بجملته وامتداده من الجنوب إلىٰ الشمال، وشرقا تلكم الجبال والحرار، لكن هناك خلاف كبير في نهاية هذه الحدود للحجاز جنوبا وشمالا وشرقا؛ مما يقتضي الإدخال والإخراج لجزء كبير من المساحات والقرىٰ والديار.

وهذا بحاجة إلىٰ علماء متخصصين يصنفون كلام أهل العلم في ذلك قديما وحديثا، ويطبقون التحديد عن مشاهدة وعيان.

وفق الله من شاء من صالح عباده لذلك.

والله الموفق.

هذه المسألة كما ذكر المصنف وهي حدود الحجاز تفتقر إلىٰ تحريرٍ في نهاياتها.

فإن الذي يقع في القلوب أن الحجاز هو مكة والمدينة وهذا هو أصل الحجاز لكن ما ينتهي إليه الحد من الجهات الثلاث غير جهة البحر هذا يحتاج إلىٰ تحقيق، ويوجد في كلام أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ في عد بعض البلدان من جملة البلاد الحجازية ما يصلح أن يكون معينًا علىٰ التحديد، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن ينبع من الحجاز، فتجري عليها أحكام البلاد الحجازية.

فإذا تتبعت هذه الإفادات المذكورة في كلام أهل المعرفة بالأرض كالمصنفين في معاجم البلدان مع كلام الفقهاء الذين تكلموا عن مسألة إخراج المشركين من جزيرة العرب تبينت هذه المسألة، ولكنها تحتاج إلىٰ تحديدٍ بمشاهدة وعيان، وهذا ما لم يقم به أحدٌ حتىٰ اليوم من الهيئات المختصة بهذا الشأن.

الفصل الرابع

خصائص جزيرة العرب

ينتظم هذا ذِكْرَ خصائص الجزيرة عموما، فالحجاز خصوصا، فعرب الجزيرة خصوصا، فالعربُ عموما.

فأَلقِ لها سمعك؛ فهو خير تُدَلُّ عليه.

١. خصائص الجزيرة عموما

هذه جملتها:

* الأولىٰ:

هذه الجزيرة حرم الإسلام، فهي معلمه الأول، وداره الأولىٰ، قصبة الديار الإسلامية، وعاصمتها، وقاعدة لها علىٰ مر العصور، وكر الدهور، منها تفيض أنوار النبوة الماحية لظلمات الجاهلية، ولذلك جاءت المنح المحمدية في صحيح السنة بما لهذه الجزيرة من خصائص وأحكام؛ لتبقىٰ هذه المنطقة قاعدة الإسلام دائمًا؛ كما كانت قاعدته أولًا، ومعقل الإيمان آخرا؛ كما كانت سابقا.

وهذه –وأيم الله– ضماناتٌ لا يمكن أن تكون لهيئة الأمم المتحدة (!) ولا لمجلس الأمن (!) ولا لمنظمة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (!) التي ما نشأت إلا في محيط حكومات الغاب وتهارش العباد.

أما جزيرة العرب؛ فلها من سامي المكانة التي تتميز بها في (خريطة العالم)، ودقيق الضمانة الواجب توفيرها، ما يجعل فعاليتها في أمم الأرض تفوق هذه المؤتمرات التي هي في حقيقتها تآمر علىٰ ما ينبزونه توهينا باسم (العالم الثالث)، الذي ليس بعده في حسبانهم من رابع، وباسم (الشرق الأوسط) _ وهذا الاصطلاح الحادث وسابقه من تخطيط يهود قبحهم الله؛ لتبقىٰ منطقة العرب والمسلمين منطقة جغرافية فحسب، لا اختصاص لها بعرب ولا بمسلمين، وهو تخطيط خبيث يرمي بعدُ إلىٰ تسويغ إقامة دولة يهود خسئوا.

وليعلم أولا أن الشرق مشرق العظائم، وأنه بلغ موضع أقدامهم بسلطان قائم، وما علىٰ الله بعزيز أن يبلغ الإسلام مبلغه منهم، وبالغ الأمل في الأفق يلوح، ونزول النصر لنا مرهون منا بتوبة نصوح.

فاعرف هذه الخصيصة لجزيرة العرب من أنها (حرم الإسلام)، وللحرم حرماته التي لا تنتهك، ولن تكون دار كفر أبدا ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

* الثانية:

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**» رواه مسلم في «صحيحه» (٢٨١٢)، والترمذي (١٩٣٧)، وأحمد (٣/ ٣١٣ و٣٥٤)، وأبو يعلىٰ (٢٢٩٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٥٢٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨)، وابن حبان (٦٤ و١٨٣٦)؛ من طرق عنه.

وقد جاء هذا الحديث عن جماعة من الصحابة بألفاظ متقاربة.

١. حديث جرير بن عبد الله البجلي:

رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢٦٧).

وفي سنده حصين بن عمر الأحمسي، قد ضعفه الجمهور؛ كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٥٣).

٢. حديث عبد الله بن عباس:

رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤٤٩).

وفي سنده ابن أبي أويس – واسمه إسماعيل ـ هو وأبوه ضعيفان.

٣. حديث ابن مسعود:

أخرجه الحميدي (٩٨)، والحاكم (٢/ ٢٧).

وفيه إبراهيم الهَجَري، وبه أعله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٩).

٤. حديث أبي الدرداء:

رواه البزار (٢٨٤٩-زوائده) من طريق إبراهيم بن أبي العباس عن عبد الحميد بن بَهْرام عن شهر بن حوشب عن ابن غَنْم به.

واختُلِف عليه فيه: فرواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٩) من طريق جبارة بن المغلِّس عن عبد الحميد به، ولكن جعله عن عبادة وأبي الدرداء؟

فإن لم يكن هذا من جبارة، فهو من تخاليط شهر؟؟ وعبد الحميد فيه ضعف أيضا؟

٥. حديث أبي هريرة:

رواه البزار (٢٨٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٨٦)؛ من طريقين عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي

هريرة.

والخلاصة: أن متن الحديث ثابت من عدة طرق عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم.

ومعنىٰ هذا الحديث: أن الشيطان يئس من اجتماع أهل الجزيرة علىٰ الإشراك بالله تعالىٰ.

ومنذ بعثة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهي إلىٰ يومنا هذا دار إسلام – ولله الحمد، حماها الله وسائر أوطان المسلمين–، ولم يعرف الشرك فيها إلا جزئيا علىٰ فترات في فرد أو أفراد، ثم يهيئ الله علىٰ مدىٰ الأزمان من يردهم إلىٰ دينهم الحق.

علىٰ أن بعض العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ تعالىٰ رأىٰ عموم هذا الحديث لأمة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

قال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ في شرحه لهذا الحديث: "المراد أنه يئس أن تجتمع الأمة كلها علىٰ الشرك الأكبر". انتهىٰ.

وذلك كما في قول الله تعالىٰ من سورة المائدة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ [المائدة:٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: «وعلىٰ هذا يرد الحديث الصحيح: (فذكره)».

وبهذا يكون ذكر جزيرة العرب؛ لمزيتها بأنها أصل ديار الإسلام، وأهلها أصل المسلمين ومادتهم.

والله أعلم.

ذكر المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هنا خصيصة ثانية من خصائص جزيرة العرب، وهي الخصيصة المذكورة في قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إن الشيطان يأس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم**»، ومعنىٰ قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إن الشيطان يأس أن يعبده المصلون» يعني بحسب ما قام بعلمه وظنه، فإنه لما رأىٰ إقبال الناس علىٰ الدخول في دين الله أفواجًا في عهد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لحقه مثل هذا اليأس، ووقوع اليأس منه لا يفيد الجزم بعدم وقوع الشرك في جزيرة العرب، لورود أحاديث عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بوقوعه في هذه الجزيرة كما في حديث «**لا تقوم الساعة حتىٰ يلحق فئام من أمتي بالمشركين**»، وهو في الصحيح.

وكذلك حديث: «**ذكر اضطراب إليات نساء دوس عند ذي الخلصة**»، وهو في الصحيح أيضا، وحينئذٍ يكون معنىٰ قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أن يعبده المصلون أي: جميعهم، وليس المقصود نفي وقوع عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ في جزيرة العرب، ولابد من المصير إلىٰ هذا للجمع بين الأحاديث، فيصير معنىٰ أن يعبده المصلون أي أن يجتمعوا علىٰ عبادته في جزيرة العرب.

والمعنىٰ الذي ذكره ابن رجب في قوله: المراد أنه يأس أن تجتمع الأمة كلها علىٰ الشرك الأكبر راجع إلىٰ المعنىٰ الأول؛ لأنه إذا قطع بأن في جزيرة العرب من يبقىٰ يعبد الله فعلىٰ فعلىٰ هذا لن تجتمع الأمة علىٰ عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ.

فكلام ابن رجب مبني علىٰ الأول، والأول هو المتبادر من الحديث، وهو أن هذه الخصيصة متعلقة بأهل جزيرة العرب، وما سيأتي من الأحاديث من أن الإسلام يأرز إلىٰ الحجاز كما في الصحيح يدل علىٰ تقرير هذا الأصل وأن بقاء الإسلام ثابت في هذه الجزيرة.

❀ الثالثة:

جزيرة العرب وقف في الإسلام علىٰ أهل الإسلام؛ علىٰ من قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وقام بحقهما.

جزيرة العرب وديعة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ أمته، التي استحفظهم عليها في آخر ما عهده النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فهي دارٌ طيبة، لا يقطنها إلا طيب، ولما كان المشرك خبيثا بشركه؛ حُرِّمت عليه جزيرة العرب ويدل لهذا عدد من الأحاديث الصحيحة عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ من حديث عمر، وابنه عبد الله، وعائشة؛ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وحديث عمر بن عبد العزيز مرسلا.

فعن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه سمع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب حتىٰ لا أدع إلا مسلما» رواه مسلم، وأبو عبيد في «الأموال». وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا؛ أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**قاتل الله اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان في أرض العرب**». متفق عليه.

وأخرجه مالك في «الموطإ» مرسلا عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ.

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: «آخر ما عهد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: لا يترك بجزيرة العرب دينان». رواه أحمد وغيره.

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان». رواه أبو عبيد في «الأموال».

فهذه الأحاديث في الصحاح نص علىٰ أن الأصل شرعا منع أي كافر -مهما كان دينه أو صفته- من

الاستيطان والقرار في جزيرة العرب، وأن هذا الحكم من آخر ما عهده النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلىٰ أمته.

وبناء علىٰ ذلك:

١ـ فليس لكافر دخول جزيرة العرب للاستيطان بها.

٢ـ وليس للإمام عقد الذمة لكافر. بشرط الإقامة لكافر بها. فإن عقده فهو باطل.

٣ـ وليس للكافر المرور والإقامة المؤقتة بها إلا لعدة ليال؛ لمصلحة؛ كاستيفاء دين، وبيع بضاعة، ونحوهما.

٤ـ وليس للكافر اتخاذ شيء من جزيرة العرب دارًا؛ بتملك أرض، أو بناء عليها؛ لأنه إذا حرّمت الإقامة والاستيطان؛ حرّمت الأسباب إليهما، وما حرّم استعماله، حرّم اتخاذه.

ولهذا فلو أحيىٰ الكافر أرضا فيها – لوَضْعٍ فاسدٍ يمكنه –؛ لم يملك بالإحياء، والواجب نزعه منه بوجهه الشرعي. ولو تملك – كذلك–؛ لم يكن له حق الشفعة، فليس لعرق ظالم حق.

٥ـ ولا تدفن جيفة كافر بها، فإن مات علىٰ أرض الجزيرة نقل عنها؛ إلا للضرورة؛ كالتعفن، فتغيَّب جيفته في عَماءٍ من الأرض، لا في مقبرة تعد لهم.

٦ـ بناء علىٰ ما أجمع عليه العلماء من تحريم بناء المعابد الكفرية مثل الكنائس في بلاد المسلمين، وأنه لا يجوز اجتماع قبلتين في بلد واحد من بلاد الإسلام، ولا أن يظهر فيها شيء من شعائر الكفر لا كنائس ولا غيرها، وما أجمع عليه العلماء من وجوب هدم الكنائس إذا أحدثت وأنه لا يجوز معارضة ولي الأمر في هدم المعابد الكفرية؛ بل تجب طاعته وبناء علىٰ ما هو معلوم من الدين بالضرورة من تحريم الكفر الذي يقتضي تحريم إنشاء مكان يكفر فيه بالله تعالىٰ، والكنيسة معبد كفري لا تتخذ إلا لذلك، فلا كنيسة في الإسلام.

وبناء علىٰ ما أجمع عليه العلماء من أن بناء المعابد الكفرية ومنها الكنائس في جزيرة العرب أشد إثما وأعظم جرما، وقد وردت الأحاديث الصحيحة الصريحة بخصوص النهي عن اجتماع دينين في جزيرة العرب.

وفي «الإقناع»: (٤/ ٢٨٧) قال الحجاوي في: (باب حكم المرتد) ما نَصُّه نقلا عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحم الله الجميع.

"وقال الشيخ –أي شيخ الإسلام ابن تيمية_: من اعتقد أن الكنائس بيوت الله، وأن الله يعبد فيها، أو

أن ما يفعله اليهود والنصارىٰ عبادة لله، وطاعة لرسوله، أو أنه يحب ذلك أو يرضاه، أو أعانهم علىٰ فتحها وإقامة دينهم، وأن ذلك قربة أو طاعة، فهو كافر. وقال في موضع آخر: من اعتقد أن زيارة أهل الذمة كنائسهم قربة إلىٰ الله، فهو مرتد، وإن جهل أن ذلك محرم، عُرِّف ذلك، فإن أصرَّ صار مرتدًا" انتهىٰ.

بناء علىٰ جميع ما تقدم فإنه ليس لكافر إحداث كنيسة فيها، ولا بيعة، ولا صومعة، ولا بيت نار، ولا نَصْبِ صنمٍ؛ تطهيرا لها عن الدين الباطل، ولعموم الأحاديث.

وعليه؛ فليس للإمام الإذن بشيء منها، ولا الإبقاء عليه؛ محدثا كان أو قديما.

٧ـ ولأنه لا يجوز إقرار ساكن وهو علىٰ الكفر، فإن وجد بها كفار؛ فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وعليه؛ فلا تثبت الجزية في رقابهم مع الإقامة بها.

٨ـ وبما أن جزيرة العرب دارُ إسلامٍ أبدًا؛ فهي جميعها أرض عشر، لا تكون خراجية أبدا؛ لأن الخراج بمنزلة الجزية، فكما لا تثبت في رقابهم مع الإقامة بها؛ لا تثبت في أرض تملكوها ظلما بها، لكنه الإسلام، أو السيف، أو الجلاء.

فكل هذه الأحكام بقصد إحكامِ الوحدة السياسية في الوحدة الجنسية.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هنا الخصيصة الثالثة التي تتعلق بجزيرة العرب وهو ما دلت عليه الأحاديث من أن هذه الجزيرة وقف في الإسلام علىٰ أهل الإسلام، وفي هذه الأحاديث الأمر بإخراج اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب وألا يبقىٰ دينان في جزيرة العرب.

وفرَّع المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ مسائل علىٰ تقرير هذا الأصل، ومن المسائل التي قررها ما لا يتغير حكمه باختلاف ما سنرجحه، ومنها ما يختلف حكمه باعتبار ما سنرجحه فإن أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ اختلفوا في جزيرة العرب الواردة في هذه الأحاديث هل هي علىٰ عمومها أم هي عامٌ أريد به الخصوص، فمذهب جمهور أهل العلم أن جزيرة العرب في هذه الأحاديث هي الحجاز، دون غيره من أقاليم الجزيرة.

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ تعميم هذا الحكم علىٰ جزيرة العرب جميعا.

واختار الأول جماعة من المحققين، منهم: النووي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن حجر العسقلاني، **وهذا هو الموافق للدليل**، والدليل علىٰ ذلك: هو أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما أخرج اليهود عملًا

بهذا الحديث أخرجهم إلىٰ تيماء وأريحاء، وتيماء هي من جزيرة العرب فهي من البلدان الداخلة في اسم جزيرة العرب وليست من البلاد الشامية بخلاف أريحاء، فلما كان هذا هو عمل عمر وأقره عليه الصحابة في معنىٰ الإخراج من جزيرة العرب دل علىٰ أن المقصود هو نفيهم من جزيرة العرب التي هي الحجاز لا نفيهم من جميع جزيرة العرب.

وهذا القول كما ذكرنا هو الراجح الموافق للدليل، ولم يعرض المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لتفصيل هذه المسألة؛ وكأنه جرىٰ علىٰ قاعدة الشرع في أدلة الوعيد والتخويف، فإن المناسبة فيها إجمالًا وتفصيلًا النظر إلىٰ حال الناس، فإذا كانوا علىٰ دينٍ وخير فصّل لهم الوعيد، وإذا كانوا علىٰ معصية وإعراض سيق الوعيد مجملًا لأنه أبلغ في وعظهم، فكأن المصنف لما رأىٰ [تتابع] الناس علىٰ التفريق في جملة من الأصول المتعلقة بصيانة جزيرة العرب عما جاء به الشارع لم يتعرض لتفصيل هذه المسألة، ولكن باعتبار ما ينبغي أن يعرفه طالب العلم هو أن العلماء مختلفون في ما يجري عليه هذا الحكم.

والصحيح من قولي العلماء أن الجزيرة التي يتعلق بها هذا الحكم من عدم إبقاء اليهودي والنصارىٰ هي البلاد الحجازية ليس غير، ثم إن هذا الإخراج هو حقٌّ لولي الأمر وليس حقًّا لغيره، لأن الأمور العامة مردها في الشرع إلىٰ ولي السلطان والحكم؛ لأنه بذلك تنتظم حياة الناس، وإذا اختلّ هذا الأصل في الأمور العامة صار كل واحد يفعل ما يشاء.

وسبق أن تعرضنا لهذه المسألة تفصيلًا في السنة الماضية، وبهذا التقرير يعلم أن من المسائل التي ذكرها المصنف ما يكون الراجح خلافها من المسائل التي تبقىٰ كما هي مثل مسألة بناء المعابد الكفرية فبناء المعابد الكفرية لا يجوز في جزيرة العرب سواء قلنا هي الحجاز فقط أم إن اسم الجزيرة يعم الجميع للقطع بأن الجميع هو بلاد للمسلمين، ولا يجوز إحداث الكنائس والمعابد في البلاد الإسلامية المستقرة وهي بريئة من ذلك.

❀ الرابعة:

ومن خصائص هذه الجزيرة المباركة أن الإسلام حين يضطهد في دياره خارجها؛ فإنه ينحاز إلىٰ هذه الجزيرة، ويأوي إليها، فيجد كرم الوفادة بعد الغربة وطول المحنة.

وفي ذلك جاء حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الإسلام بدأ غريبًا،**

وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرِزُ بين المسجدين كما تأرز الحية إلىٰ جحرها».

فانظر كيف ربط النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بين غربة الإسلام، ثم احتضان هذه الجزيرة له؛ انتشالًا من غربته.

٢. خصائص الحجاز

يقع الحجاز من جزيرة العرب موقع التاج من الحُلَّةِ، وبين مسجديه يأرِز الإيمان، وينحاز في آخر الزمان؛ كما سبق حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

وتمتع بهذه الشذرة الفائقة من كلام القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ في «الشفا» عن الحرمين الشريفين، فيقول:

"وجدير بمواطن عمرت بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها علىٰ جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومُتَبَوَّأُ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وأين فاض عبابها، ومواطن مهبط الرسالة، وأول أرض مس جلد المصطفىٰ ترابها.. أن تعظم عرصاتها، وتتنسم نفحاتها" انتهىٰ مختصرا.

واعلم أن الخصائص السالفة لجزيرة العرب هي للحجاز قلب الجزيرة، بل قلب العالم الإسلامي من بابِ أولىٰ.

وقد اخْتُصَّ الحرمانِ الشريفانِ –مكةُ، ومدينة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حرسهما الله تعالىٰ بخصائصَ ومَيِّزاتٍ:

- خصائص مهد الهداية (البلد الحرام، أم القرىٰ، مكة)؛ زادها الله شرفا:

وفي خصوص البلد الحرام؛ فآيات القرآن الكريم، وأحاديث نبيه عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم، متكاثرة نصوصها علىٰ بيانها وذكرها، وكتب المؤرخين –وبخاصة عن تاريخ الحرمين الشريفين– توضح ذلك وتشرحه:

وأكتفي هنا بذكر ما رقمه قلم الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ في فاتحة كتابه الحافل «الهدي النبوي» (١/ ٤٦ – ٥٤) عند تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [القصص:٦٨]، فقال

رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: [١] ومن هذا اختياره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها، وهي البلد الحرام؛ فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختاره لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس الدنيا، وجعله حرما آمنا، لا يسفك فيه دم ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد، ولا يختلىٰ خلاه، ولا تلتقط لقطته للتمليك، بل للتعريف ليس إلا، وجعل قصده مكفرا لما سلف من الذنوب، ماحيا للأوزار، حاطا للخطايا؛ كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أتىٰ هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه**».

ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، ففي «السنن» من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة**».

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**العمرة إلىٰ العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**».

فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده، وأحبها إليه، ومختاره من البلاد؛ لما جعل عرصاتها مناسك لعباده؛ فرض عليهم قصدها، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه، فقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين]، وقال تعالىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد].

وليس علىٰ وجه الأرض بقعة يجب علىٰ كل قادر السعي إليها، والطواف بالبيت الذي فيها؛ غيرها، وليس علىٰ وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه، وتحط الخطايا والأوزار فيه؛ غير الحجر الأسود، والركن اليماني.

وثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، ففي «سنن النسائي» و«المسند» بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه؛ إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في**

---

(١) هذا جزء من قاعدة الاختيار التي أحلناكم البارحة عليها قلنا لابن القيم كلامه في الاختيار في تشريف الذوات والأماكن والأوقات وهذا طرفٌ منها.

مسجدي هذا بمائة صلاة». ورواه ابن حبان في «صحيحه».

وهذا صريح في أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض علىٰ الإطلاق، ولذلك كان شد الرحال إليه فرضا، ولغيره مما يستحب ولا يجب.

وفي «المسند» و«الترمذي» و«النسائي» عن عبد الله بن عدي بن الحمراء أنه سمع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو واقف علىٰ راحلته بالحَزْوَرَةِ من مكة يقول: «**والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلىٰ الله، ولولا أني أخرجت منك؛ ما خرجت**». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

بل ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم، فليس علىٰ وجه الأرض قبلة غيرها. ومن خواصها أيضا أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة؛ دون سائر بقاع الأرض.

وأصح المذاهب في هذه المسألة أنه لا فرق بين الفضاء والبنيان؛ لبضعة عشر دليلا قد ذكرت في غير هذا الموضع، وليس مع المفرق ما يقاومها البتة؛ مع تناقضهم في مقدار الفضاء والبنيان، وليس هذا موضع استيفاء الحِجاج من الطرفين.

ومن خواصها أيضا أن المسجد الحرام أول مسجد في الأرض؛ كما في «الصحيحين» عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن أول مسجد في الأرض؟ فقال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصىٰ». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون عاما».

وقد أشكل هذا الحديث علىٰ من لم يعرف المراد به، فقال: معلومٌ أن سليمان بن داود هو الذي بنىٰ المسجد الأقصىٰ، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام!

وهذا من جهل هذا القائل؛ فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصىٰ تجديده، لا تأسيسه، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلىٰ الله عليهما وآلهما وسلم بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار، ومما يدل علىٰ تفضيلها أن الله تعالىٰ أخبر أنها أم القرىٰ، فالقرىٰ كلها تبع لها، وفرع عليها، وهي أصل القرىٰ، فيجب ألا يكون لها في القرىٰ عديل، فهي كما أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن الفاتحة أنها أم القرآن، ولهذا لم يكن لها من الكتب الإلهية عديل.

ومن خصائصها أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام، وهذه خاصية لايشاركها فيها شيء من البلاد، وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، وقد روي عن ابن عباس بإسناد لا يحتج به مرفوعا: «لا يدخل أحد مكة إلا بإحرام من غير أهلها».

ذكره أبو أحمد بن عدي ؛ ولكن حَجّاج بن أرطاة في الطريق، وآخر قبله من الضعفاء.

وللفقهاء في المسألة ثلاثة أقوال: النفي، والإثبات، والفرق بين من هو داخل المواقيت ومن هو قبلها، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام، ومن هو داخلها، فحكمه حكم أهل مكة، وهو قول أبي حنيفة، والقولان الأولان للشافعي وأحمد.

وقد تقدم بيان أن الراجح في هذه المسألة أن من دخل لأجل نسك فإنه لا يجوز أن يتجاوز تلك المواقيت إلا بإحرام فيكون دخوله بإحرام، وأما من لم يرد النسك فإنه لا يجب عليه أن يتلبس بالإحرام لأجل دخولها.

ومن خواصه أنه يعاقب فيه علىٰ الهمِّ بالسيئات وإن لم يفعلها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج].

فتأمل كيف عَدَّىٰ فعل الإرادة هاهنا بالباء، ولا يقال: أردت بكذا؛ إلا لما ضُمن معنىٰ فعل (همّ) فإنه يقال: هممت بكذا، فَتَوَعَّدَ من همّ بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم.

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه، لا كمياتها؛ فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها، وصغيرة جزاؤها مثلها، فالسيئة في حرم الله وبلده وعلىٰ بساطه آكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصىٰ الملك علىٰ بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه، فهذا فصل النزاع في تضعيف السيئات، والله أعلم.

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة، وهوىٰ القلوب، وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو الأولىٰ بقول القائل:

محاسنه هيولىٰ كل حسن ... ومغناطيس أفئدة الرجال

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس؛ يثوبون إليه علىٰ تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطرا، بل كلما ازدادوا له زيارة؛ ازدادوا له اشتياقا.

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها ... حتىٰ يعود إليها الطرف مشتاقا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح، وكم أنفق في حبها من الأموال والأوطان؛ مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطب والمشاق، وهو يستلذ ذلك كله، ويستطيبه، ويراه –لو ظهر سلطان المحبة في قلبه– أطيب من نِعَمِ المُتَحَلِّيَةِ وترفهم ولذاتهم.

ولـــيس محبًّـــا مـــن يعـــد شـــقاءه عـــذابا إذا مـــا كـــان يرضـــىٰ حبيبـــه

وهذا كله سر إضافته إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]، فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته؛ كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلىٰ نفسه ما اقتضته من ذلك، وكذلك إضافته عباده المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم.

فكل ما أضافه الرب تعالىٰ إلىٰ نفسه؛ فله من المزية والاختصاص علىٰ غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء، ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلا آخر، وتخصيصا وجلالة زائدا علىٰ ما كان له قبل الإضافة.

ولم يوفق لفهم هذا المعنىٰ من سَوَّىٰ بين الأعيان والأفعال، والأزمان والأماكن، وزعم أنه لا مزية لشيء منها علىٰ شيء، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح.

وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجها قد ذُكِرت في غير هذا الموضع، ويكفي تصور هذا المذهب الباطل في فساده؛ فإن مذهبا يقتضي أن تكون ذوات الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة، وإنما التفضيل بأمر لا يرجع إلىٰ اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها، وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات، ليس لبقعة علىٰ بقعة مزية البتة، وإنما هو لما يقع من الأعمال الصالحة، فلا مزية لبقعة البيت، والمسجد الحرام، ومنىٰ، وعرفة، والمشاعر علىٰ أي بقعة سميتها من الأرض، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة، لا يعود إليها ولا إلىٰ وصف قائم بها.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد رد هذا القول الباطل بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٢٤]؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] أي: ليس كل أحد أهلا ولا صالحا لتحمل رسالته؛ بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصلح إلا لها، والله أعلم بهذه المحال منكم.

ولو كانت الذوات متساوية -كما قال هؤلاء- لم يكن في ذلك رد عليهم.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام]، أي: هو سبحانه أعلم بمن يشكره علىٰ نعمته، فيختصه بفضله، ويمنّ عليه، ممن لا يشكره، فليس كل محل يصلح لشكره، واحتمال منّته، والتخصيص بكرامته.

فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها مشتملة علىٰ صفات وأمور قائمة بها ليست لغيرها، ولأجلها اصطفاها الله، وهو سبحانه الذي فضلها بتلك الصفات، وخصها

بالاختيار، فهذا خلقه، وهذا اختياره ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]...".

إلىٰ أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "... ولم نقصد استيفاء الرد علىٰ هذا المذهب المردود المرذول، وإنما قصدنا تصويره، وإلىٰ اللبيب العادل العاقل التحاكم ولا يعبأ الله وعباده بغيره شيئا، والله سبحانه لا يخصص شيئا، ولا يفضله ويرجحه؛ إلا لمعنىٰ يقتضي تخصيصه وتفضيله.

نعم هو معطي ذلك المرجح وواهبه، فهو الذي خلقه، ثم اختاره بعد خلقه، وربك يخلق ما يشاء ويختار" انتهىٰ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «الصفدية» (١/ ٢٢٠ – ٢٢١) ما نصه: "كذلك ما خص به الكعبة الحرام من حين بناه إبراهيم وإلىٰ هذا الوقت من تعظيمه وتوقيره وانجذاب القلوب إليه، ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والمدائن والقصور بالآلات العظيمة البناء المحكم، ثم لا يلبث أن ينهدم ويهان، والكعبة بيت مبني من حجارة سود بواد غير ذي زرع، ليس عنده ما تشتهيه النفوس من البساتين والمياه وغيرها، ولا عنده عسكر يحميه من الأعداء، ولا في طريقه من الشهوات ما تشتهيه الأنفس؛ بل كثيرا ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطش والجوع ما لا يعلمه إلا الله، ومع هذا؛ فقد جعل الله من أفئدة الناس التي تهوىٰ إليه ما لا يعلمه إلا الله.

وقد جعل للبيت من العز والشرف والعظمة ما أذل به رقاب أهل الأرض، حتىٰ تقصده عظماء الملوك ورؤساء الجبابرة، فيكونون هناك في الذل والمسكنة كآحاد الناس.

وهذا مما يعلم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر، وقوىٰ نفوسهم وأبدانهم، والذي بناه قد مات من ألوف السنين.

ولهذا كان أمر البيت مما حير الفلاسفة والمنجمين والطبائعية؛ لكونه خارجا عن قياس عقولهم وقوانين علومهم، حتىٰ اختلقوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه كل عاقل لبيب؛ مثل قول بعضهم: إن تحت الكعبة بيتا فيه صنم يُبَخَّرُ، ويصرف وجهه إلىٰ الجهات الأربع؛ ليقبل الناس إلىٰ الحج!

وهذا مما يعلم كل من عرف أمر مكة أنه من أبين الكذب، وأنه ليس تحت الكعبة شيء من هذا، وأنه لا ينزل أحد من أهل مكة إلىٰ ما تحت الكعبة ولا يحفره أحد، ولا يبخر أحد شيئا هناك، ولا هناك صنم ولا غير صنم!!

وكان ابن سبعين وأمثاله من هؤلاء يحارون من هذا، وربما قالوا: ليت شعرنا؛ ما هو الطَّلْسَمُ الذي

صنعه إبراهيم الخليل حتىٰ صار الأمر هكذا؟

وهم يعلمون أن أمور الطلاسم لا تبلغ مثل هذا، وأنه ليس في الأرض ما يقارب هذا، وأن الطلاسم أمور معتادة معروفة بأسباب معروفة، ولهذا يصنع الرجل طلسما [١] ويصنع الآخر مثله أو أعظم منه، وأما هذا؛ فخارجٌ عن قدرة البشر.

وليس في الوجود طلسم يستحوذ علىٰ أهل الأرض، ولا يتصرف في قلوب أهل الأقاليم الثلاثة، وهم أفضل الإنس، وأكملهم عقولا وأديانا، والطلاسم إنما يقوىٰ تأثيرها إذا ضعف العقل، فيؤثر في الجماد أكثر من الحيوان، ويؤثر في البهائم أكثر من الأناسي، ويؤثر في الصبيان والمجانين أكثر من العقلاء، وهكذا تأثير الشياطين، كلما ضعفت العقول؛ قوي تأثيرهم" انتهىٰ.

* خصائص مدينة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

عدل المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ عما شاع عند الناس من قولهم المدينة المنورة وهذا الاسم عنده أعني اسم المدينة المنورة مناسبٌ لحالها إلا أنه لا يوجد في الكتب القديمة؛ وهو مما أحدثه الأتراك؛ كإحداثهم أيضًا لاسم مكة المكرمة، وهذه المحدثات قد يقع بسببها خفاء بعض المعالم التي كانت مسماة بأسماء واردة في النصوص وكلام أهل العلم.

فمثلًا من رام أن يبحث في كلام أهل العلم عن جبل النور فإنه لا يجد في كلام أهل العلم إلىٰ سنة ألف ومائتين تقريبًا أو قريبًا منها لا يجد من يذكره بهذا الاسم، وإنما يذكرونه باسم جبل حراء، فهو مسمًّىٰ باسم الغار الذي فيه هو غار حراء، أما تسميته بجبل النور فهي تسمية حادثة، وينبغي رد المعالم إلىٰ أسمائها القديمة التي عُلقت بها الأحكام لينضبط فهمها، وعلىٰ طالب العلم أن يحرر الأسماء التي جعلت للمعالم لئلا يقع في الغلط.

وأما الدار النبوية الشريفة: طيبة، وطابة الطيبة، دار الهجرة، المدينة النبوية المنورة؛ كما قال حسان بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

بطيبـــة رســـم للرســـول ومعهـــد منيـــر وقـــد تعفـــو الرســـوم وتهمـــد

---

(١) الطلسم المراد به العمل السحري.

فلها من الخصائص الشريفة:

١. تسميتها (حرما)؛ مثل مكة حرسهما الله تعالىٰ:

وليس في الدنيا ما يطلق عليه اسم الحرم سواهما؛ إلا أن مكة يقال لمسجدها: المسجد الحرام أما المدينة؛ فلا يقال لمسجدها: الحرم، ولا المسجد الحرام، وإنما يقال: مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا؛ فلا يقال للمسجد الأقصىٰ: ثالث الحرمين؛ لأن لفظ (الحرم) لا يطلق عليه، وقد بيَّنْتُ ذلك في «معجم المناهي اللفظية».

هذه الجملة هي أيضًا من شواهد نفوذ بصره رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأسماء، فإن من الناس من يقول عن مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: المسجد الحرام، أو يقول الحرم النبوي، واسم الحرم عند ذكر المسجد مختصٌّ بمكة، والمدينة إنما يقع اسم الحرم عليها جميعًا فلا يقال لمسجدها: الحرم، وإنما يقال للبلدة كلها هي حرم، وما عدا هذا فلا يقال له حرم، كالمسجد الأقصىٰ فلا يقال له ثالث الحرمين، ولا يقال كذلك لمسجد مدينة الخليل إنه الحرم الإبراهيمي، ولا يقال كذلك لفناء الجامعة الحرم الجامعي؛ لأن وصف الحرم تثبت به أحكام شرعية، وإنما جعل لأجل إقامة تلك الأحكام في المواضع التي جُعل لها، وهي مكة والمدينة باعتبار البلدية، ومسجد مكة باعتبار المسجد.

٢. تحريمها كان علىٰ لسان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، بعد غزوة خيبر، أما مكة –حرسها الله تعالىٰ–؛ فتحريمها علىٰ لسان نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٣. المدينة حرم آمن؛ مثل مكة:

فعن سهل بن حنيف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهوىٰ بيده إلىٰ المدينة، وقال: «إنها حرم آمن». رواه مسلم.

وحرمها ما بين لابَتَيها –ويقال: ما بين مَأْزَمَيْها، وهما الحرتان؛ شرقا وغربا–، ويحدها شمالا وجنوبا جبلان: جبل أحد شمالا، وجبل عَيرٍ جنوبا. ويقال: شمالا جبل ثور، وهو جبل صغير خلف أحد، وقد غلط من الفقهاء من ظن أن ثورا هو الذي بمكة، ومعناه إخراج المدينة من المحدود، فلا تكون حرما.

٤. وقد خصها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأدعية عامة، وخاصة:

أ. فمن العامة قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ اجعل في المدينة ضِعْفَي ما جعلته بمكة من البركة». متفق عليه.

ب. ومن الخاصة: دعاؤه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأن يبارك الله في صاعها، ومدها، وأن ينقل الله حماها إلىٰ الجُحْفَةِ وهي مهيعةٌ.

٥. إخبار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الإيمان يأرز وينحاز إلىٰ المدينة – زادها الله شرفا.

٦. وقد خص النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أهلها وسكانها بأمور؛ منها ما يلي:

أ. عن جابر –وذكر قصة– أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إنما المدينة كالكير؛ تنفي خَبَثَها، وينصع طِيبُها». رواه البخاري ومسلم.

ب. عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال؛ إلا مكة والمدينة، ليس من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترتجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق». متفق عليه.

ج. ما في حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «لا يصبر علىٰ لأوائها وشدتها أحد؛ إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة». رواه مسلم.

د. وما في حديثه –أيضا– أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «من استطاع أن يموت بالمدينة؛ فليمت؛ فإني أشفع لمن يموت بها». رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه.

وهو حديث حسن، لكن هل يشمل معناه من نقل إلىٰ المدينة ليدفن فيها رجاء الدخول في شفاعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ ظاهر النص لا، فإن النص فيه ذكر أمر الموت، فإن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من استطاع أن يموت في المدينة**» ولم يقل من استطاع أن يدفن بالمدينة، فنقل الجنائز إلىٰ المدينة رجاء إصابة الشفاعة المذكورة في هذا الحديث لا يظهر اندراجه فيه، وإنما يختص بمن مات في المدينة، وفي هذا الحديث الترغيب في سكنىٰ المدينة؛ لأن من سكن المدينة فقُضي عليه الموت فكان موته فيها فتحقق له هذا الوعد المذكور فيها.

هـ. عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من أراد أهل المدينة بسوء؛ أذابه الله كما يذوب الملح في الماء**». رواه مسلم.

و. وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**المدينة خير لهم لو**

كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها؛ إلا أبدل الله فيها من هو خير منه...». رواه مسلم.

ز. لا يدخلها الطاعون. كما في حديث عن البخاري ومسلم. وبحثه في «بذل الماعون» لابن حجر ص ١٠٢، ٢٠٤.

٧. ومدينة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها أحكام فقهية خاصة بها:

أ. فلا ينفر صيدها، ولا يقتل، وجزاء الصائد وعقوبة فاعل ذلك: سَلْبُه.

ب. ولا يقلع منها شجرة، وأبيح ذلك لرجل يعلف بعيره.

ج. ولا تلتقط لقطتها.

د. ولا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال.

هـ. لا تقتل حياتها إلا بعد إيذانها ثلاثة أيام.

٨. خصائص لبعض ثمارها:

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح؛ لم يضره سم حتىٰ يمسي**». رواه مسلم.

وفي رواية عنده وعند البخاري تقيده بالعجوة. وفي رواية لمسلم: «**إن في عجوة العالية شفاء**».

وفي «مسند أحمد» وغيره: «**العجوة من الجنة، وهي شفاء...** » الحديث.

الحديث برواية مسند أحمد ضعيفٌ، والثابت هو ما في الصحيح من عدها شفاءً، وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مما بين لابتيها**»، أي حرتيها قيد للتمر الذي يكون نافعًا بدفع السموم وهو نخل المدينة الكائن بين الحرتين، فما خرج عن هذا مما وراء الحرتين لا يكون من جملة التمر الممدوح بهذا النّعت.

٩. خصائص لبعض بقاعها وجبالها في الفضل والفضيلة:

أ. فضل المسجد النبوي الشريف، وفضل الصلاة فيه.

ويشترك مع مسجدي مكة والمقدس بمضاعفة أجر الصلاة، ومشروعية شد الرحل؛ علىٰ ما هو مشهور في السنة.

ب. فضل الروضة من مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنها ما بين بيته ومنبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولم يأت في لفظ صحيح أنها ما بين قبره ومنبره، وإنما كان ذلك بعدُ، باعتبار ما كان من قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته.

ج. فضل صلاة ركعتين في مسجد قباء، وأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يأتيه كل سبت ماشيا وراكبا.

د. وادي العقيق: وادٍ مبارك.

هـ. جبل أحد: ثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قوله: «**جبل أحد يحبنا ونحبه**». متفق عليه، في غيره من الأحاديث.

١٠. ومنها: تحريم الإحداث فيها، وإيواء من أحدث حدثا، وعقوبة من فعل ذلك بأن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين:

كما في حديث الخليفة الراشد علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ المشهور بحديث الصحيفة. والله أعلم.

٣. خصائص عرب الجزيرة

العرب قومٌ شِراف، يَزِنُونَ الحياة بغير ما تَزِنها به أمم البطون والفروج، وموازينهم في الحياة تدور علىٰ قطبٍ واحد، وهو: المَحْمَدَةُ، والذكر الحسن.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (العرب قوم شراف يزنون الحياة بغير ما تزينه بها أمم البطون والفروج) إلىٰ آخره، لشيخ الإسلام ابن تيمية كلام حسن للرد علىٰ المنطقيين لو جاء به ههنا لأضاء الكتاب بتحقيق هذا المعنىٰ.

فإن شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ حقق صلة أوصاف الأمم الثلاثة العرب والفرس والروم بهذه الأسماء التي وضعت للدلالة عليه:

فذكر أن العرب لما كانوا معروفين ببيان الكلام وإبراز الأمور وإظهارها وعيبهم لما يخالف ذلك استحقوا اسم العرب، الموضوع في لسان **العرب للدلالة علىٰ الظهور والبروز**.

ولما كانت الأمة الفارسية أمة ظلمٍ وغصبٍ وفرسٍ واعتداء سميت باسم الفرس.

ولما كانت الأمة الرومية أمة لا يتناهىٰ رومها لملذات الدنيا من المآكل والمشارب والمناكح سميت بالروم.

فالوضع العربي لكلمة العرب دالٌّ علىٰ هذا المعنىٰ الذي ذكره المصنف في هذا الموضع، وهو مصدقٌ بما ذكرنا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد علىٰ المنطقيين.

وفي حدِّهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: "و اسم (العرب) في الأصل كان اسما لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف:

أحدها: أن لسانهم كان باللغة العربية.

الثاني: أنهم كانوا من أولاد العرب.

الثالث: أن مساكنهم كانت أرض العرب، وهي جزيرة العرب التي هي من بحر القلزم إلىٰ بحر البصرة، ومن أقصىٰ حَجَرٍ باليمن إلىٰ أوائل الشام؛ بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل الشام.

وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله، فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار؛ سكنوا سائر البلاد من أقصىٰ المشرق إلىٰ أقصىٰ المغرب، وإلىٰ سواحل الشام وأرمينية، وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم.

ثم انقسمت هذه البلاد قسمين:

منها: ما غلب علىٰ أهله لسان العرب، حتىٰ لا تعرف عامتهم غيره أو يعرفونه وغيره، مع ما دخل علىٰ لسان العرب من اللحن وهذه غالب مساكن الشّام والعراق ومصر والأندلس ونحو ذلك، وأظن أرض فارس وخراسان كانت هكذا قديما.

ومنها: ما العُجمة كثيرة فيهم أو غالبة عليهم؛ كبلاد الترك وخراسانَ وأرمينيةَ وأذربيجان ونحو ذلك.

فهذه البقاع انقسمت إلىٰ ما هو عربي ابتداء، وما هو عربي انتقالا، وإلىٰ ما هو أعجمي.

وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام:

قوم من نسل العرب، وهم باقون علىٰ العربية؛ لسانا ودارا، أو لسانا لا دارا، أو دارا لا لسانا.

وقوم من نسل العرب، بل من نسل هاشم، ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما.

وقوم مجهولو الأصل، لا يدرون: أَمِنْ نسل العرب هم أو من نسل العجم؟ وهم أكثر الناس اليوم، سواء كانوا عرب الدار واللسان، أم عجما في أحدهما.

وكذلك انقسموا في اللسان ثلاثة أقسام:

قوم يتكلمون باللغة العربية لفظا ونغمة.

وقوم يتكلمون بها لفظا لا نغمة، وهم المتعرِّبون الذين ما تعلموا اللغة ابتداء من العرب، وإنما اعتادوا غيرها، ثم تعلموا؛ كغالب أهل العلم ممن تعلم العربية.

وقوم لا يتكلمون بها إلا قليلا.

وهذان القسمان: منهم من تغلب عليه العربية، ومنهم من تغلب عليه العجمة، ومنهم من يتكافأ في حقه الأمران: إما قُدرةً وإما عادةً.

فإذا كانت العربية قد انقسمت نسبا ولسانا ودارا، فإن الأحكام تختلف باختلاف هذا الانقسام، خصوصا النسب واللسان" انتهىٰ.

ولفاضل مزاياهم ظهر الإسلام فيهم، واصطفىٰ الله نبيه ورسوله محمدا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم، فكانت النبوة من أصلابهم، وترشحوا حَمَلَةَ نشر الرسالة الأُوَل، وصار اعتقاد فضلهم علىٰ غيرهم من أصول الاعتقاد في الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: "فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم؛ عِبرانِيِّهِم وسريانيهم، رومهم وفرسهم، وغيرهم، وأن قريشا أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل بني هاشم فهو، أفضل الخلق نفسا، وأفضلهم نسبا، وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم؛ بمجرّدِ كون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك ثبت لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أفضل نفسا ونسبا، وإلا لزم الدَّوْرُ".

"ولله تعالىٰ حِكَمٌ بالغة في أن اختار لهذه الرسالة رجلا عربيا، وليس هذا موضعَ بيان ما بلغ إليه العلمُ من تلك الحكم، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

بيدَ أنَّا نقول: إن الرسول لما كان عربيا؛ كان بحكم الضرورة يتكلم بلسان العرب، فلزم أن يكون المتَلَقُّون منه الشريعةَ بادئَ ذي بدءٍ عربًا، فالعرب هم حملة شريعة الإسلام إلىٰ سائر المخاطَبين بها، وهم من جملتهم، واختارهم الله لهذه الأمانة؛ لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاختلاط ببقية أمم العالم.

فهم بالوصف الأول أهل لفهم الدين وتَلَقِّيه.

وبالوصف الثاني أهل لحفظه، وعدم الاضطراب في تلقيه.

وبالوصف الثالث أهل لسرعة التخلُّق بأخلاقه، إذ هم أقرب إلىٰ الفطرة السليمة، ولم يكونوا علىٰ

شريعة معتد بها مماثلة حتىٰ يصمموا علىٰ نصرها.

وبالوصف الرابع أهل لمعاشرة بقية الأمم، إذ لا حزازات بينهم وبين الأمم الأخرىٰ؛ فإن حزازاتِ العرب ما كانت إلا بين قبائلهم؛ بخلاف مثل الفرس مع الروم، ومثل القبط مع الإسرائيليين.

ولا عبرة بما جرىٰ بين بعض قبائل العرب وبين الفرس والروم في نحو يوم ذي قار، ويوم حليمة؛ لأنها حوادث نادرة، علىٰ أن العرب كانوا فيها يقاتلون انتصارا لغيرهم من الفرس أو الروم، فإِحَنُهُم معهم محجوبة بإِحَنِ مَن قاتلوهم وراءهم" انتهىٰ.

ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكِرمانيُّ صاحب الإمام أحمد، في وصفه للسنة التي قال فيها:

"هذا مذهب أهل العلم، وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها، المقتدىٰ بهم فيها، وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها؛ فهو مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد، وإسحاق بن إبراهيم بن مَخْلَد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم؛ ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم.

فكان من قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية...".

وساق كلاما طويلا إلىٰ أن قال:

"ونُقِرُّ للعرب حقها وفضلها وسابقتها، ونحبهم لحديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الحبُّ للعرب إيمان وبُغضهم نفاق»، ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي، الذين لا يحبون العرب، ولا يقرون فضلهم، فإن قولهم بدعة وخلاف".

وعن خصائصهم تتبعتُ وقيدتُ كثيرا، فوجدت أن ما وقفت عليه مشمول بما هو مدون في كتاب «أم القرىٰ» (ص ٢١٨ – ٢٢٢)، وعنه في «مجلة المنار» (٥/ ٨٦١ – ٨٦٢)، فها أنا ذا أسوقه باختصار قليل:

«وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير أمر النهضة الدينية؛ بناءً عليه؛ رأت الجمعية من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها، وأهلها ومن يجاريهم، وأن تبسط لأنظار الأمة ما هي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموما، وذلك لأجل رفع التعصب السياسي أو الجنسي.

ولأجل إيضاح أسباب مَيْل الجمعية للعرب فنقول:

١. الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي.

٢. الجزيرة فيها الكعبة المعظمة.

٣. الجزيرة فيها المسجد النبوي، وفيه الروضة المطهرة.

٤. الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزا للسياسة الدينية؛ لتوسطها بين أقصىٰ آسية شرقا وأقصىٰ إفريقية غربا.

٥. الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط؛ جنسية، وأديانا، ومذاهب.

٦. الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.

٧. الجزيرة أفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرار؛ لبعدها عن الطامعين والمزاحمين؛ نظرا لفقرها الطبيعي.

٨. عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الإسلامية؛ لظهور الدين فيهم.

٩. عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين.

١٠. عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين؛ لأنهم أعرقهم فيه، ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان.

١١. عرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصا علىٰ حفظ الدين، وتأييده، والفخار به؛ خصوصا والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز، واليمن، وعمان، وحضرموت، والعراق، وإفريقيا.

١٢. عرب الجزيرة لم يزل الدين عندهم حنيفا، سلفيا، بعيدا عن التشديد والتشويش.

١٣. عرب الجزيرة أقوىٰ المسلمين عصبية، وأشدهم أنفة؛ لما فيهم من خصائص البدوية.

١٤. عرب الجزيرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم.

١٥. عرب الجزيرة أقدم الأمم مدنية مهذبة؛ بدليل: سعة لغتهم، وسمو حكمتهم وأدبياتهم.

١٦. عرب الجزيرة أقدر المسلمين علىٰ تحمل قشف المعيشة في سبيل مقاصدهم، وأنشطهم علىٰ التغرب والسياحات، وذلك لبعدهم عن الترف المذلّ أهله.

١٧. عرب الجزيرة أحفظ الأقوام علىٰ جنسيتهم وعاداتهم، فهم يخالطون ولا يختلطون.

١٨. عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية علىٰ الحرية والاستقلال وإباء الضيم.

١٩. العرب عموما لغتهم أغنىٰ لغات المسلمين في المعارف، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت.

٢٠. العرب لغتهم هي اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم ٣٠٠ مليون.

٢١. العرب لغتهم هي اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين.

٢٢. العرب أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية.

٢٣. العرب أعرق الأمم في أصول الشورىٰ في الشؤون العمومية.

٢٤. العرب أهدىٰ الأمم لأصول المعيشة.

٢٥. العرب من أحرص الأمم علىٰ احترام العهود عِزَّةً، واحترام الذمة إنسانيةً، واحترام الجوار شهامةً، وبذل المعروف مروءةً.

٢٦. العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء؛ فلا يأنفون عن اتباعهم أخيرا.

... والجمعية تسأل الله تعالىٰ أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتصلب في الدين، وللحزم، والعزم، عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن يحميهم من التعصب السيئ للسياسات والجنسيات، ومن الكبر والأنفة، ومن التخاذل والانقسام، ومن الانقياد إلىٰ وساوس الأجانب الأضداد، وإلا؛ فينتابهم الخطر القريب المحدق بهم، وتتخاطفهم النسور المحلقة في سمائهم.

والله الموفق، وإليه ترجع الأمور." انتهىٰ باختصار يسير.

٤. خصائص قوم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعترته.

وعن مزايا قوم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعترته واستعدادهم للنهوض بدعوته كتب كثير من العلماء، وبخاصة الذين ألفوا في أحوال العرب.

وللشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ مبحث نفيس في رسالته «خلاصة السيرة المحمدية» (٤ – ١٦)، حيث قال ما نصه: "مزايا قومه وعترته، واستعدادهم للنهوض بدعوته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران]، إذ جعل فيهم النبوة والهداية للمتقدمين والمتأخرين.

ثم إن الله تعالىٰ اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشا من كنانة، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفىٰ سيد ولد آدم من بني هاشم، فكان آل إسماعيل أفضل الأولين والآخرين، كما كان بنو

إسحاق أفضل المتوسطين، إذ كانت هداية الأنبياء من بني إسحاق وغيرهم خاصة، وهداية هذا النبي من آل إسماعيل عامة، فبه أكمل الله تعالىٰ الدين، وأتمّ نعمته علىٰ العالمين؛ كما اقتضته سنّته تعالىٰ في النشوء والارتقاء، التي كانت في البشر أظهر منها في سائر الأحياء.

كيف كان اصطفاء الله تعالىٰ لهذه الأصول من الأمة العربية، الذي ثبت في «صحيح مسلم» و«سنن الترمذي» من كتب السنّة السَّنيَّةِ؟

وبماذا امتاز قوم خاتم الرسل الكرام، ففَضَلوا به غيرهم من الأقوام، حتىٰ استعدوا به لهذا الإصلاح الروحي المدني العام، الذي اشتمل عليه دين الإسلام، علىٰ ما طرأ عليهم من الأمية وعبادة الأصنام، وما أحدثت فيهم غَلَبَةُ البداوةِ من التفرق والانقسام والعدوان والخصام؟

الجواب:

كانت العرب ممتازةً باستقلال الفكر، وسعة الحرية الشخصية؛ أيام كانت الأمم ترسف في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية، محظورا عليها أن تفهم غير ما يلقنها الكهنة ورجال الدين من الأحكام الدينية، وأن تخالفهم في مسألة عقلية أو كونية أو أدبية؛ كما حظرت عليها الحكومات المستبدة حرية التصرفات المدنية والمالية.

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الأعمال؛ أيام كانت الأمم مذللة مسخرة للملوك والنبلاء، المالكين للرقاب والأموال، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم، ويصرِّفونها كما يصرِّفون السوائم، لا رأي لها معهم في سِلم ولا حرب، ولا إرادة لها دونهم في عمل ولا كسب.

كانت العرب ممتازة بعزة النفس، وشدة البأس، وقوة الأبدان، وجرأة الجنان، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف، ومرؤوسين أضعفهم البؤس والشَّظَف، وسادةً أبْطَرَهم بغي الاستبداد، ومَسودِين أذلّهم قهر الاستعباد.

كانت العرب ممتازة بالذكاء واللوذعية، وكثيرٍ من الفضائل الموروثة والكسبية؛ كقِرىٰ الضيوف، وإغاثة الملهوف، والنجدة والإباء، وعلو الهمة والسخاء، والرحمة والإيثار، وحماية اللاجئ وحرمة الجار، أيَّامَ كانت الأمم مُرهقةً بالأثَرة والأنانية، وثِقَل الضرائب والأتاوي الأميرية، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية، وفسادُ الأخلاق قد عمَّ الراعي والرعية.

كانت العرب قد بلغت أوج الكمال في فصاحة اللسان، وبلاغة المقال، وكادت تتحد لغات قبائلها

أو لهجاتها العربية، وبَزَّت المُضَرِيَّةُ منها الحِمْيَرِيَّة؛ بما كان لقريشٍ وغيرها من الرِّحلات التجارية والأسواق الأدبية.

فتلك كبريات مزايا الأمة العربية، التي أعدها الله تعالىٰ بها للبعثة المحمدية، والسيادة الدينية والمدنية، بعد أن طال العهد علىٰ مدنيتهم العاديَّة، واستعمارهم للبلاد الكَلدانية والبابلية، والبلاد الفينيقية والمصرية، التي تشهد لها سيادةُ لغتهم للُّغات الساميَّة، وبقاياها في اللغة الهيروغليفية، وبعد أن غَلبت عليهم الأُمِّيَّة، وفَشَتْ فيهم خُرافات الوثنية وعصبيةُ الجاهلية.

وجملةُ مزاياهم أنهم كانوا أسلم فطرةً علىٰ كون أمم الحضارة كانت أرقىٰ منهم في كل فنٍّ وصناعة.

والإصلاح الإسلامي مبنيٌّ علىٰ تقديم إصلاح الأنفس؛ باستقلال العقل والإرادة، وتهذيب الأخلاق، وحرِّية الوجدان، علىٰ إصلاح ما في الأرض من معدن ونبات وحيوان.

وبهذا كان الله تعالىٰ يُعِدُّ هذه الأمة للإصلاح العظيم، الذي جاء به محمدٌ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم.

اصطفاء كنانةَ وقريشٍ وبني هاشم:

أما اصطفاء الله لكنانةَ الشيخِ الجليلِ، من سلالةِ نبيه الذَّبيحِ إسماعيل؛ فيفسِّره ما كانت تحفظُهُ العربُ من أخبار كرمه ونبله، حتىٰ نقل الحافظ في «شرح البخاري» أنهم كانوا يحُجُّون إليه لعلمه وفضله، وكان علىٰ سُنَّةِ جدِّه إبراهيمَ الخليلِ؛ لا يأكل وَحْدَهُ.

ومما يؤثَر عنه من الحِكَمِ الجليلة –كما روي في «السيرة الحلبية»–: رُبَّ صورة تخالف المخبرة، قد غرَّتْ بجمالها، واختُبِر قُبْحُ فِعَالها، فاحذر الصُّوَرَ، واطلب الخُبْرَ.

فهذا دليل علىٰ ما وصف به من العلم والحكمة.

وأما حج العرب إليه؛ فهو دليل علىٰ أنه كان مثابة التعارف، ومعقِدَ رابطةِ الاجتماع والتآلف.

وأما اصطفاء الله تعالىٰ لقريشٍ الميامين الغرّ –وهم ذرية فهر بن مالك، وقيل: جده النضر–؛ فقد كان بما آتاهم من المناقب العظام، ولا سيما بعد سكنىٰ مكة، وخدمة المسجد الحرام، إذ كانوا أصرح ولد إسماعيل أنسابا، وأشرفهم أحسابا، وأعلاهم آدابا، وأفصحهم ألسنة، وهم الممهَّدون لجمع الكلمة.

فقد نقل أهل السِّيَر أن مالك بن النضر كان ملك العرب، وأن كعب بن لؤي كان يجمع قومه

ويعظهم يوم الجمعة، وكانوا يسمونه يوم العَروبة، وأنهم كانوا يجلونه في حياته، ثم أرخوا بموته بعد وفاته، وأن قصيا جمع شمل قبائل قريش بمكة، إذ كان هو الوارث لمن كانوا يتولونها من خزاعة، وقد تملك عليهم فملكوه؛ إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه دينا في نفسه، لا ينبغي له تغييره ولا لغيره من بعده.

قال ابن إسحاق: وهو الذي أنشأ الندوة، وجعل بابها إلىٰ الكعبة، وقد أجمعت قريش علىٰ طاعته وحبه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء، ثم وزعت المناصب بعده علىٰ الزعماء.

فجملة ما امتاز به آله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ سائر قومه الأخلاق العلية، والفواضل العملية، والفضائل النفسية، وكانوا أبعد من سائر قريش عن الكبر والأثرة والأمور الحربية، ولذلك غُلبوا علىٰ الرياسة حتىٰ بعد الإسلام، وحكمة ذلك ظاهرة لأولي الأحلام، فهو أنفىٰ للشُّبَه عن رسالته عليه أفضل الصلاة والسلام" انتهىٰ ملخصًا.

وعما اختصت به العرب من العلوم يقول ابن فارس رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ في «الصاحبي» (ص٧٦ – ٧٧) ما نصُّه:

"باب ذكر مَا اختصت بِهِ العرب:

من العلوم الجليلة الَّتِي اختصت بِهَا العرب: الإعرابُ، الَّذِي هو الفارق بَيْنَ المعاني المتكافِئَة فِي اللفظ، وبه يعرف الخبر الَّذِي هو أصل الكلام، ولولاه مَا مُيِّز فاعلٌ من مفعول، ولا مضافٌ من مَنْعوتٍ، ولا تَعَجُّبٌ من استفهام، ولا صَدْرٌ من مصدَر، ولا نعتٌ من تأكيدٍ.

وذكر بعض أصحابنا أن الإعراب يختص بالأخبار.

وَقَدْ يكون الإعراب فِي غير الخبر أيضًا؛ لأنّا نقول: "أزيدٌ عندك؟" و"أزيدًا ضربتَ؟" فقد عَمِل الإعراب وَلَيْسَ هو من باب الخبر.

ورغم ناس يُتَوقَّفُ عن قَبول أخبارهم أن الذين يُسمَّون الفَلاسِفة قَدْ كَانَ لهم إعرابٌ ومؤلَّفاتُ نحوٍ.

قال أحمد بن فارس: وهذا كلام لا يـُعَرَّجُ عَلَىٰ مثله. وإنما تَشَبّهَ القوم آنفًا بأهل الإسلام، فأخذوا من كتب علمائنا، وغَيَّروا بعض ألفاظها، ونسبوا ذَلِكَ إِلَىٰ قوم ذَوي أسماء منكرةٍ؛ بتراجمَ بَشِعَةٍ لا يكاد لسان ذي دين ينطق بِهَا، وادَّعوا مع ذَلِكَ أن للقوم شعرًا، وَقَدْ قرأناه فوجدناه قليل الماءِ، نَزْرَ الحَلاوة،

غير مستقيم الوزن.

بلىٰ؛ الشِّعر شِعر العرب، ديوانُهم، وحافظ مآثِرهم، ومُقيّدُ أحسابهم.

ثُمَّ للعرب العَروض، الَّتِي هي ميزان الشِّعر، وبها يُعرف صحيحه من سقيمه، ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه؛ علم أنه يُرْبي عَلَىٰ جميع مَا يتبَجَّحُ بِهِ هؤلاء الَّذِين يَنْتَحلون معرفة حقائق الأشياء؛ من الأعداد، والخطوط، والنُّقَطِ؛ الَّتِي لا أعرف لَهَا فائدة؛ غير أنها مع قلة فائدتها، تُرِقّ الدّين، وتنتج كل مَا نعوذ بالله منه.

وللعرب حفظ الأنساب، وَمَا يُعلَم أحدٌ من الأمم عُني بحفظ النسب عناية العرب.

قال الله جلّ ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجُرات:١٣]، فهي آية مَا عَمِل بمضمونها غيرُهم.

ومما خصَّ الله جلَّ ثناؤه بِهِ العَربَ: طهارتُهم، ونَزاهَتُهم عن الأدناس الَّتِي استباحها غيرهم؛ من مخالَطَةِ ذوات المحارِم. وهي منقبة تَعْلو بِجَمالها كلَّ مأثرةٍ.

والحمد لله." انتهىٰ.

وهكذا...

وفي أعقاب خاتمة الرسالات لنبينا ورسولنا محمد بن عبد الله المُطَّلِبِيِّ الهاشميّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت دعوة التجديد علىٰ يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفىٰ سنة ١٢٠٦ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي نصب راية الدعوة إلىٰ التوحيد، وإحياء ما اندرس من معالم الدين، والتي لا يزال ينعم بها من شاء الله من عباده في هذه الجزيرة وخارجِها.

وفي الحاضر: هذه اليقظة الإسلامية التي نشاهدها اليوم؛ فإن هذه الدعوة المباركة تمثل الزاد النقيَّ لهذه اليقظة علىٰ منهاج النبوة؛ سليمةً من الأهواء والأوهام والانحرافات، مُبَرَّأَةً من مظاهر الشرك وتبعات الغلو.

وهكذا يمتد رواقها في العالم الإسلامي؛ لأنها تمثل الإسلام تماما كما أنزله الله علىٰ نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي المستقبل -علىٰ مشارف الساعة، في أيام الفتنة الكبرىٰ؛ فتنة المسيح الدجال-؛ فإن الرجلَ المؤمنَ الذي تتحطَّمُ علىٰ يده هذه الفتنةُ هو من أهل هذه الجزيرة؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، المتفق عليه.

وفي هذا إشارة وإيماء إلىٰ أن كل فتنةٍ عمياءَ صماءَ تجتاح بلاد الإسلام؛ تتحطم علىٰ صخرة هذه الجزيرة، وإذا كانت فتنة الدجال هي أعظم فتنة من لَدُن نوحٍ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إلىٰ قيام الساعة، ويكون تحطيمها علىٰ يد رجل مؤمن من هذه الجزيرة؛ فإن كل فتنة دونها ستتحطم علىٰ يد أبناء هذه الجزيرة بإذن الله تعالىٰ.

الفصل الخامس

الضمانات لحماية هذه الخصائص

كلما امتدّ رُواقُ الإسلامِ علىٰ أرضٍ؛ فعُدَّها دار إسلام، ومهما تعددت الولايات - العارضة -؛ فالجميع هو المملكة الإسلامية.

وعُدّ عاصمَتها جزيرةَ العرب؛ لما لها من خصائصَ في الشرع تتميزُ بها ولا يُشاركها فيها غيرُها.

وَعُدَّ جميعَ المسلمينَ - مهما تعدّدت ديارُهم وولاياتُهم - يكوِّنون الجامعةَ الإسلاميةَ. وعُدَّ عربَ الجزيرة فيها هم حُفّاظُ هذه الرابطة الدينية للجامعة الإسلامية، وذلك لما لهم من خصالٍ وخصائصَ شريفةٍ لا يشاركُهم فيها غيرُهم.

وإذا كانت مدارجُ الشرفِ في الإسلام هي: الإسلامُ، التقوىٰ، العلم، النسب، وكان أشرفُ الأنساب هو نسبُ العربِ وكان العربُ هم مادة الإسلام؛ فعُدَّ عربَ الجزيرة هم صلبَ العربِ، وهم مادةَ المسلمين بعد أن صفّاهم الله تعالىٰ من نَتَنِ الجاهلية وغَلَيانِ العصبية القبلية ودعاوىٰ الجاهليةِ، فشرّفهم بالإسلام وحَطّمَ قيودَ الوثنية والنعراتِ القومية والسبلَ البعثية فلا وطنية ولا قومية لكنها الرابطة الإيمانية والأخوة الإسلامية، وخاطبهم وغيرهم: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥] وحفظ لهم ميزاتِهم وسرَّ اختيارهم حَمَلَةَ الرسالةِ الأولين.

إذا كان الحالُ كذلك؛ فإن دارَ الإسلام أيـًّا كانت وإن المسلمين أيـًّا كانوا وفي الطليعة هذه الجزيرةُ وعربُها؛ الكلُّ رأسُ مال تجب المحافظةُ عليه من التوىٰ والضياع والفرقةِ والانقسام، وتجب تربيته وتنميته واستصلاحُ أحوالهِ، وهذا أولىٰ من مجاهدةِ الكفار لإدخالهم في الإسلام؛ لأن استصلاح أحوال المسلمين وحفظَ بَيضَتِهم من باب المحافظة علىٰ رأس المال، ومجاهدةُ الكافرين من باب طلبِ الربح.

وهل يَطلُبُ الربحَ من يفتقد رأسَ مالِه؟! وهل يُوصَل إلىٰ مجاهدةِ الكافرين والنصرةِ عليهم إلا بالمسلمين الذين يمثلون الطرازَ الأول السائرَ علىٰ منهاج النبوة.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن هذه الجزيرةَ من المنطقة الإسلامية «هي معقلُ الإسلام والمسلمين وعاصمته الخالدة وقلبُ العالم الإسلامي كمركزِ القلبِ في الجسم الإنساني ورأسِ مال المسلمين والخطِّ الأخيرِ في الدفاع عن الوجود الإسلامي».

وهذه الجزيرة " في العالم الإسلامي (بمثابةِ) مركزِ القلب في الجسم الانساني الذي إذا عاش وقَوِيَ وأدّىٰ رسالته في الجهاز الجسمي والنظامِ الحيويِّ الصحي؛ عاش الجسم وقوي وإذا دَبَّ الوهنُ إلىٰ هذا

القلب أو اعتلَّ وتخلّىٰ عن وظيفته ودورِه أسرعَ إليه الموتُ واستولت عليه الأمراضُ والعللُ وعجزَ الأطباءُ الحاذقون عن إعادة الحياة إليه بالطرق الصناعية.

وقد أشار إلىٰ هذه الصلةِ الدقيقة العميقة بين القلب والجسد الحديثُ الصحيح المشهور الذي جاء فيه: «**ألا إن في الجسد مضغةً إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كلُّه وإذا فسدت فَسَدَ الجسدُ كله ألا وهي القلب**».

وذلك لأن الحجازَ مَهبِطُ الوحي ومبعثُ الإسلام ومصدرُ الدعوة الإسلامية ومركزُ الإسلام الدائمُ وعاصمته الخالدةُ وهو البلدُ المثاليُّ والمقياسُ الصحيح الدائمُ للحياة الإسلامية وتعاليمِ الإسلام العالمية وصلاحيتِها للبقاءِ والتطبيق وظهورِ المجتمع الإسلامي في حيويته وأصالته وجماله وقوته فالرسالةُ الإسلامية مهما كانت عالميةً آفاقيةً لا بُدَّ لها من مركزٍ يُعَدُّ مقياسًا وميزانا لعمليّتِها وواقعيتها، وأسوةً وقدوة لجميع المدن والقرىٰ والمجتمعات التي تؤمن بهذه الرسالة وتحتضن هذه العقيدةَ والدعوة.

والإنسان مفطور علىٰ البحث عن المقياس الصحيح والبلدِ المثالي والموئِلِ الذي يأوي إليه والمصدرِ الذي يستمِدُّ منه القوةَ والثقة والحماسة والاندفاعَ؛ سواءٌ في الأديان والشرائع والنظم والفلسفات والحضارات والمدنيات والآداب والعادات واللغات واللهجات والأناقةِ والثقافة وسلامةِ الذوق ورِقّة الشعور.

فكان لكل دينٍ مركزٌ يحتجُّ بعمله وأعرافه، وكان لكل حضارةٍ بلدٌ مثالي أو عاصمةٌ أو قاعدةٌ يستدلُّ بأساليبِ الحياة فيها، والأنماطِ المدنية، والمثلِ الاجتماعية في نواحيها، ولكلِّ لغةٍ وأدبٍ مركزٌ يستند إليه في معرفة الصحيح الفصيح من التعبير والبيان، ومناهجِ اللغة والكلام، والحكمِ علىٰ المفردات واللغات بالصحة والخطأ، ولكلِ عصرٍ إقليمٌ وبلدٌ مثالي يتظرَّف الناسُ ويتنبَّلون بتقليد عاداته وتقاليده، واتخاذِ مُثُله وقِيَمِه أمثلةً كاملةً للحياةِ الراقيةِ والأخلاقِ الفاضلة.

وقد عَقَد الله بين العرب والإسلام، ثم بين الحجاز والأمة الإسلامية، ثم بين الحرمينِ الشريفينِ وقلوبِ المسلمين للأبد، وربط مصيرَ أحدِهِما بالآخر.

وقد حَرَصَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - وكان في ذلك نبيا مُلهَما وحكيما كلَّ الحكمة - علىٰ بقاءِ هذا الرباط الوثيق المقدَّس بين جزيرة العرب والإسلام فضلا عن الحجاز والحرمين الشريفين،

وحَرَصَ علىٰ سلامة هذا المركز وهدوئِه وشدةِ تمسّكه بهذا الدين وعضِّهِ عليه بالنواجذ؛ لأن العاصمةَ يجبُ أن تكون بعيدةً عن كلِّ تشويشٍ وعن كل فوضىٰ وعن كل صراعٍ عقائدي أو مبدئي، فشَرَعَ لذلك أحكاما بعيدةَ النتائج واسعةَ المدىٰ، وأوصىٰ لذلك وصايا دقيقةً حكيمةً، وأخذ لذلك من أصحابه وأمَّتِه عهودًا ومواثيقَ.

وقد ذكرت عائشةُ أمُّ المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا؛ قالت: كان آخرَ ما عَهِدَ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن قال: «لا يُترك بجزيرة العرب دينان».

وعن رافعٍ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «**أمَرَ ألا نَدع في المدينة دينا غيرَ الإسلام إلا أُخرج**».

وعن جابر بن عبد الله قال: أخبرني عمرُ بنُ الخطاب أنه سمع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**لأخرجنَّ اليهودَ والنصارىٰ من جزيرة العرب حتىٰ لا أدَعَ فيها إلا مسلمًا**».

وأخذ بذلك الخلفاءُ الراشدونَ المهديُّون فكانوا ينظرون دائما إلىٰ جزيرة العرب كمعقلٍ للإسلام ورأسِ مالِ الدعوة الإسلامية " انتهىٰ.

لذلك؛ فإن المُتعَيّن علىٰ أهل هذه الجزيرةِ، وعلىٰ من بسط اللهُ يده عليهم وعليها: المحافظةُ علىٰ هذه المَيِّزات والخصائصِ الشرعية؛ ليَظهر تميّزُها، وتبقىٰ الجزيرةُ وأهلها مصدرَ الإشعاعِ لنور الإسلام علىٰ العالم.

وليُعلَم أنه كلما قَوِيَ هذا النورُ؛ امتدَّ هذا الإشعاعُ، وكلما ضَعُفَ وتضاءَلَ في هذه الجزيرةِ وأهلِها؛ تقاصرَ. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم اعلم أن هذه الضَّماناتِ منها ما هو عامٌّ لأهلِ الإسلام مهما كانت ديارهم ومهما تعدَّدَ جنسهم، لكنها تتأكد في حقِّ أهل هذه الجزيرة، ومنها ماهو خاص بها لموجبِ النصِّ.

ثم منها ما هو متيسِّرٌ إعمالُهُ ومنها ما فيه نوعُ عُسرٍ ومشقَّةٍ لاختلالِ الأحوالِ، لكن نذكره معذرةً أمامَ اللهِ وأمامَ التاريخِ والأجيالِ المتعاقبةِ -والله المستعان.

وإليك بيان بعضٍ منها:

١. كما تكون المحافظةُ علىٰ الحدودِ المكانيَّةِ لأيِّ إقليمٍ ولائيٍّ؛ فإن المحافظةَ علىٰ الحدود الشرعية والخصائص المرعيةِ وصيانتِها لهذه الجزيرة واجبةٌ كذلك علىٰ من بسط الله يده عليها.

وعليه؛ فإن النتيجة من المحافظة علىٰ الحدود الإقليميّةِ الولائيّةِ معاقبةُ من ينتهكها، فكذلك من

باب أولىٰ تجب معاقبة من ينال من حدودها وخصائصها وحرماتِها الشرعيةِ بما يلاقي انتهاكَه شرعا.

٢. سلطان الحاكمية فيها لا يجوز أن يكون لغير دولة التوحيد، ورايةِ التوحيد.

ومن عجائب المقدور ولطائفِ الحيِّ القيوم، ولأمر خيرٍ يريده الله – وهو سبحانه أعلمُ بالأحوال – في هذه الأمة المرحومة إن شاء الله تعالىٰ: صار العَلَم الولائيُّ في قلب هذه الجزيرة يحمل كلمةَ التوحيد، وهكذا كان اللواءُ الأبيض للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مكتوبا عليه «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله».

رواه أحمد والترمذي من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

ولهذا؛ فإن الأعلامَ إن نُكِّسَت – ابتداعا– لموت العظماء؛ فإن هذا هو العَلَمُ الوحيد الذي يكون تنكيسه من أشد مواطن الإثم والجُناح.

وبالجملة؛ فلا تُساسُ الأمة بغير شرع الله الإسلام كما قال حسان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ:

وما الدين إلا أن تُقامَ شرائعٌ وتُؤمَنَ سُبلٌ بيننا وهِضابُ

واعلم أن أي شقاء في الأمة أو فسادٍ هو بسبب ما يُصَبُّ علىٰ الأمة من تحلِّلٍ وانحلال في إقامة الدين بين العباد.

٣."اتخاذُ الحياةِ الإسلامية؛ الحياة التي يرضاها اللهُ وينصُرُ عليها، والحرصُ علىٰ إزالةِ جميعِ المنكرات وأسبابِ السخط ودواعي الخذلانِ والفشلِ في المجال الإداري والأخلاقِ الاجتماعية والفردية، وتتبُّعُها تتبُّعا دقيقا، والحدُّ من الثراء الفاحش وتكدسِه في عددٍ محدود وطبقةٍ معينة، وتقييدُ التجارةِ وحركةِ الاستيرادِ الحُرَّةِ علىٰ حساب أخلاقِ الشعب وفي مصلحةِ عددٍ محدودٍ جدا وطبقةٍ معينة؛ فإن كل ذلك مما يمهِّد الأرض ويفتح الطريق للشيوعية المتطرِّفَة، والاشتراكيةِ المقَنَّعة. والحيلولة بقدر الإمكان وإلىٰ أقصىٰ الحدود؛ فإن ذلك مما يجحِفُ بالشعب ويجني علىٰ الأخلاق ويجعلُ الحسبةَ والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر شبهَ مستحيلٍ، وقد نبَّه نابغةُ العرب وفيلسوف المؤَرِّخين العلامةُ ابنُ خَلدون علىٰ ضرره وسوءِ أثرِهِ في الحياة " انتهىٰ مُلخَّصا.

٤. إخضاعُ كلِّ ما يجري ويصدُرُ علىٰ أرض هذه الجزيرةِ من أنظمةٍ وأوامرَ وتعليماتٍ وقوانينَ لمقاصد الإسلام وللمقاصد التي بنيت لها هذه الكعبةُ المشرفةُ واختيرت لها هذه الأرض لتكون مركزا للإسلام ومصدر إشعاع عالميا وللحكمة التي نبه عليها القرآن بقوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج].

٥. إزالةُ التناقض بين إسلامية هذه الديار القائمةِ منذ فجر الرسالة وإلىٰ يومنا هذا وبين كل ما ينافسها "في مجال الإعلام والتربية والمظاهرِ الاجتماعية واتجاهاتِ الشعب من اندفاعٍ مشهورٍ إلىٰ الترفيه والتسلية والأغاني والملاهي والقَصَصِ المثيرة والبرامجِ المستوردة الرقيعة التي أفلت معها الزِّمامُ من يد المربّين والآباءِ والأساتذةِ والعلماء، والتي لا يحتفظ معها أي شعب بالبقية الباقيةِ من الشعور الديني والحصانة الخُلُقية ولا يستعد للطوارئ والمفاجآت ولا يتحمل أقل صدمة أو خطر من الخارج".

٦. يجبُ علىٰ من بسط الله يده علىٰ أيٍّ من هذه الجزيرةِ منعُ سُكنىٰ المشركينَ وإيوائهم، وتطهيرُها منهم فضلا عن أن يكون لهم فيها أيُّ كيانٍ أو تملُّكٍ، شائعًا أو مستقلا.

وإن وجد من له تملك فيها وجب علىٰ ولي الأمر بيعه لمسلم ولا يجوز إقراره عليه كما لو اشترىٰ كافر مملوكا مسلما فإنه لا يجوز تملكه له ويجب تخليصه من ملكه: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء] فكذلك لا يجوز إقرار أرض من جزيرة العرب في ملك كافر.

وعليه؛ فإن وجودَ أيِّ نظامٍ يقضي بتملُّك الكافرِ في هذه الجزيرةِ يُعَدُّ من نواقضِ هذا الواجب، فيجب إلغاء ما ينقضه.

أما وجودُ لَبِنَة علىٰ لَبنة لمعبد كافر: كنيسةٍ أو صومَعَةٍ أو بيتِ نارٍ.. وهكذا؛ فهذا عينُ المبارزةِ والمحاربةِ لدينه وشرعه: الإسلامِ.

فلا يجوز أن يكون فيها محلُّ عبادةٍ إلا لمسجدٍ في الإسلام.

٧. يجب علىٰ من ولاّهُ الله الأمرَ المنعُ البات من منح التجنُّسِ لأيِّ كافر أو مشرك لا يدين بالإسلام، وتطهيرُها من التصرُّفات الجاهلية في ذلك.

٨. وإذا كانتِ العِلّةُ الشرعيةُ في إخراجِ المشركين من هذه الجزيرةِ، وعدمِ الرضا بأي كيان لهم فيها، هي: لتبقىٰ هذه الديارُ ديارَ إسلامٍ، وأهلُها مسلمين، فتسلمُ قاعدةُ المسلمين، ويسلم قادتُهم من أي تهويد أو تنصير... فإن الحكمَ يدور مع علته.

وعليه؛ فلا يُفيد هذا الحكمُ القصرَ علىٰ إخراج أجسادِ المشركين من هذه الجزيرة؛ بل يرمي إلىٰ ما هو أبعدُ من ذلك إلىٰ العلة التي من أجلها وجب إخراجهم منها وحَرُمَت سُكناهم فيها.

ولذا؛ فيشمل هذا الحكمَ إخراجُ نفوذهم وتوجيههم وحضارتهم ودعوتهم وتياراتهم المعادية

للإسلام وعن كل ما يهدّد أخلاقيات هذه البلاد وينال من كرامتها.

فاحتفِظ - حَفِظنا الله وإياك بالإسلام - بهذا المَدرَكِ الفقهي، وأسِّس عليه ما تراه من الضمانات بعدُ.

٩. وعليه؛ إذا كانت الجزيرةُ وبخاصةٍ قلبَها تثير حساسية المسلمين عند أي هجمة شرسة عليها من استيلاء استعماري أو فرض منهج عقدي أو سلوكي علني فإن العِدا والمبطنين لها سلكوا مسلك الوأد الخفي لعصب الحياة في العالم الإسلامي علىٰ أرض الجزيرة: الإسلام صافيا علىٰ منهاج النبوة وذلك بتسرب موجات الغزو تحت شعار الحضارة وقناع العلم وتكثيف اجتماعات ولقاءات تكسر حاجز النفرة من الأهواء المضلة وتذوب صفاء الحياة وتكدر صفوها وتقودها إلىٰ تراقي الاحتضار.

وعليه؛ فيجب أن يُحسب لهذا كلُّ حساب، فليُرفَض كلُّ سابلة تؤدي إلىٰ هذا المضمار.

ومن ألْأم هذه المسالك ما يعود به عدد من المبتعثين من شباب هذه الأمة إلىٰ ديار الكفر إذ يعودون وهم يحملون تحللا عقديا رهيبا منضوين تحت لواء حزبي مارق وفي لحظات يمسكون بأعمال قيادية عن طريقها ينفِّذون مخططاتهم ويدعو بعضهم بعضا فيتداعون علىٰ صالحي الأمة وعلىٰ صالح أعمالها، وهذا أضرّ داء استشرىٰ في هذه الجزيرة فهل من متيقظ؟! وهل من مستبصر؟!

أما فتح المدارس العالمية الأجنبية الاستعمارية فهي صعقة غضبية يتناثر الصبر دونها، فحرام فتحها، وحرام دخول أولاد المسلمين فيها، وقد أفردت بشأنها كتابا- والحمد لله رب العالمين.

١٠. وعليه؛ فتجب ملاحقة البدع ومحاصرتها في أمر كلي أو جزئي وإن دقّ وتنظيف الجزيرة منها فإنه «متىٰ اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذىٰ بالطعام الخبيث».

وإن وجد من يحمل حدثا وبدعة في الإسلام فتستصلح حاله وإلا يطرد من هذه الجزيرة وينفىٰ عنها لأن الله إذا حرّم شيئا حرم الأسباب الموصلة إليه فقد حرم الشرع استيطان الكفار لهذه الجزيرة، والأهواءُ المضلة سابقةُ الخروجِ من الملة، والبدعُ بريدُ الكفر، والمبتدعة خفراؤه، فإذا تعذّر استصلاح حملة البدعة والنافخين في كيرها تعيّن نفيُهم حمايةً لحرمة قاعدة الإسلام وسَكَنَتها.

١١. جزيرة العرب هي بارقة الأمل للمسلمين في نشر عقيدة التوحيد لأنها موئل جماعة المسلمين الأول وهي السُّور الحافظ حول الحرمين الشريفين فينبغي أن تكون كذلك أبدا فلا يسمح فيها بحال

بقيام أي نشاط عقدي أو دعوي – مهما كان – تحت مظلة الإسلام؛ مخالفا منهاج النبوة الذي قامت به جماعة المسلمين الأولىٰ: صحابة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجدّده وأعلىٰ مناره الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ.

فالجماعة واحدة: جماعة المسلمين تحت عَلَم التوحيد علىٰ طريق النبوة لا تتوازعُهم الفرق والأهواء ولا الجماعات والأحزاب.

وإن قبول أي دعوة تحت مظلة الإسلام تخالف ذلك هي وسيلةُ إجهازٍ علىٰ دعوة التوحيد وتفتيتٍ لجماعة المسلمين، وإسقاطٍ لامتياز الدعوة، وسقوطٍ لجماعتها، وكسرٍ لحاجز النفرة من البدع والمبتدعين، والفسق والفاسقين.

والجماعات إن استشرىٰ تعددها في الجزيرة فهو خطر داهم يهدد واقعها ويهدم مستقبلها ويسلّم بيدها ملفَّ الاستعمار لها وبه تكون مجمّع صراع فكري وعقدي وسلوكي ينشأ عن ذلك إسلامٌ إقليمي: فينشأ إسلام إيراني، وإسلام تركي، وإسلام هندي، وإسلام أفغاني، وإسلام أوروبي، وإسلام أمريكي ويظهر في جانب من جوانب العالم الإسلامي الواسع تحريفٌ ديني أو مسخ للإسلام أو تنجح مؤامرة يحوكها رجل ذكي من أعداء الإسلام فلا تمكن مقاومتها والتغلب عليها وكان ذلك من حِكم مشروعية الحج وأسراره لأنه استعراضٌ عالميٌّ للأمم الإسلامية وطبقات الأمة المسلمة علىٰ صعيد واحد ووقت واحد في رحاب البيت الحرام الذي جعله الله ملتقىٰ المسلمين وقياما للناس.

ولما كانت الجزيرةُ والحجازُ معقلَ الإسلام ومبدؤه ومنتهاه، والموئلَ الذي يأوي إليه الإسلامُ والمسلمون في ساعات عصيبة وأزمات مختلفة وفي آخر الزمان وقد جاء في بعض الأحاديث ما يدلّ علىٰ ذلك فعن عمرو بن عوف قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الدين ليأرِزُ إلىٰ الحجاز كما تأرِز الحيةُ إلىٰ جُحرها، وليعقِلَنَّ الدينُ من الحجاز مَعقِلَ الأَروِيَة من رؤوس الجبال**».

وعن عمر عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ، وهو يأرِزُ بين المسجدين كما تأرز الحية إلىٰ جُحرها**».

وعن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إن الإيمان ليأرِز إلىٰ المدينة كما تأرز الحية إلىٰ جحرها**».

ولما كانت هذه الجزيرةُ وهذه البقاعُ المقدسة مصدرَ الإشعاعِ العالمي الإسلامي، ومقياسَ قوةِ

الإسلام وسلطانه؛ كان علماء المسلمين وقادتهم - في كل زمن وبلد - شديدي الحساسية لما يقع فيها من حوادث ولما يجري فيها من تيارات دقيقي الحساب لمدىٰ تمسكها بالتعاليم والآداب الإسلامية ومحافظتها علىٰ الروح الدينية والعاطفة الإسلامية كبيري الغيرة عليها وعلىٰ قيادتها للعالم الإسلامي وقد تجلىٰ ذلك في كتابات علماء الإسلام وأدبهم وشعرهم في أزمنة مختلفة وقد سار قول أشهر شعراء إيران وأدبائها: الشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي (المتوفىٰ ٦٩١) مسير المثلِ: «إذا بدأت طلائع الفساد والانحرافات من فناء الكعبة ورحاب البيت الحرام؛ فعلىٰ الإسلام والمسلمين السلام».

وقد فزع الشاعر الفارسي المسمىٰ بأبي المجد مجدودٍ الغزنوي المعروف بالحكيم السَّنَّائي (المتوفىٰ ٥٤٦) لحوادثَ جرت في عصره ولتسرُّب نفوذ بعض القوىٰ المعادية للإسلام إلىٰ جزيرة العرب وإلىٰ البقاع المقدسة ومركز الإسلام فأشار إلىٰ ذلك في قصيدة له وحَسَب له كلَّ حساب وحذّر العالمَ الإسلامي من سوء عاقبته وأثارَ غيرةَ أهلِ الحجاز وأبناءِ الجزيرة " انتهىٰ.

فواجبٌ واللهِ تنظيفُ هذه الجزيرة من تلكم المناهج الفكرية المبتدعة والأهواء الضالة وأن تبقىٰ عُنوانَ نُصرةٍ للكتاب والسنة والسيرِ علىٰ هدي سلف الأمة حربا للبدع والأهواء المُضِلّة.

١٢. وعليه؛ فيجب تعميقُ الرابطة الدينية ثم يجب جَذمُ جُذورِ العصبية لغير الكتاب والسنة مهما ظهرت في أي مِسلاخ فهي عصبيات جاهلية مُنتِنَة تثيرُ الشغب وتشعلُ الفتن وتضرِمُ المشاكلَ وتزرعُ الإحنَ.

فواجبٌ محاصرتها وإطفاؤها وتحطيمُ جمعِها، سواءٌ أكانت عصبيةً قَبَليّة أم عصبيةً رياضية أو سواهُما من تلكم الموجات الكاسحة التي تبذل فيها جهود الشياطين حاملين جراثيم الهرج ركضا وراء السراب لنَقلَةِ شباب الأمة إلىٰ آخر أشواط التخلف فيكونون هباء منثورا لا يقتلون صيدا ولا ينكؤون عدوا.

إنها قوة ما إن تفور إلا وتغور، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

١٣. يجب تعميق الوحدة الأخلاقية في قالب الإسلام لا غير فواجبٌ وقفُ مرحلة الإغارة علىٰ أخلاقيات هذه الجزيرة الإسلامية والانتقالِ منها إلىٰ السلوكيات الغُثائية الوافدة في مجالات الحياة كافة وتحت إرخاء العَنان للترفّه والمد الحضاري الغُثائي الغربي، والتهامِ اللذات والتسابق إلىٰ عوامل الاسترخاء والتميّع والتفكيرِ المترهل والنَّهَم في جلب الكماليات والتسابُقِ إلىٰ مظاهر البذخ حتىٰ في

اللباس للذكور والإناث كلُبس البنطال والقُبعة – الكبوس، ويقال: البرنيطة – والألبسة الخالعة للنساء، وغيرها. فالله الله في لباسكم الإسلامي يا أهل الجزيرة. ومثل: المواقيت والمقاييس والموازين.. إلىٰ آخر شهوةِ التشبّهِ بأعداء الله الكافرين.

وصدق النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لتتبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم شبرا بشبرٍ وذراعا بذراع حتىٰ لو دخلوا جُحر ضب لتبعتموهم**».

وما هذا إلا لأن التشبه يفعل الأفاعيل فيُفقِدُ النفوسَ والبلادَ حُرمتها ومكانتها ويقطع صلتها عن الماضي ويشبه إلىٰ حد بعيد (الميكروبات) فتلك تُمرض القلوب وهذه تُمرض الأبدان.

وإذا كانت الشريعة تنهىٰ عن هذا عمومَ المسلمين؛ فإن النهي يتأكد في حق أهل هذه الجزيرة.

وواجبٌ واللهِ بجانبِ وقفِ هذا المدِّ عنهم: ترميمُ ما فسد في هذه العصابة الكريمة وما داخَلَها من أخلاق وافدة غريبة عليها في دينها وعُنصُرِها.

ولا بدّ من دعوةٍ جَهيرة لصدّ هذه العوادي والوِفاداتِ المفسدة لأخلاقيات هذه البلاد وكفّ الخطر المحيط بها، وإنشاءِ أهلِها خَلقا آخر علىٰ سَنَنِ الفطرة يمزقون بهَدِيِهِم وفِعالهم تلك الحملات الغُثائية وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

١٤. التميُّز في عامة الهدي عملا وقدوة ودعوة علىٰ رسم الكتاب والسنة بلا مضاهاة ولا مشابهة ولا تَغَرُّب فإن الشريعة تنهىٰ عن المضاهاة والتشبه بالمشركين والمنافقين وبالشياطين وبالأعاجم والمبتدعة وأهل الأهواء وبالنساء والمخنّثين.. ونحو ذلك من وجوه الانحراف القاضية علىٰ تميز الشخصية الإسلامية بأي نوع من أنواع الانحراف بما قد يكون كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون سيئة وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمرٌ تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان فلذلك أُمِرَ العبدُ بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلىٰ الاستقامة التي لا يهودية فيها ولانصرانية أصلا ".

وإن الشريعة تنهىٰ عن التعرُّب؛ بمعنىٰ: الرجوعِ إلىٰ البادية بعد الهجرة وبمعنىٰ مشابهة الأعراب فيما يخالف هدي الإسلام ولو بالألفاظ؛ كلفظ العَتمة: «لا تغلِبَنّكم الأعرابُ علىٰ اسم صلاتكم العتمة؛ فإنما هي العشاء». وباديةُ كلِّ ديار بحسبها.

وتنهىٰ نهيًا بالغا عن ذينِكَ المتضادَّين: (الحمراءِ) من غير العرب ويقال: أهل التسوية وهم:

«(الشعوبية) مذهب أراذل الموالي و(القومية العربية) مذهب أراذل النصارىٰ الذين قامت ثقافتهم علىٰ تمجيد القومية العربية ثم تسرب رشحها إلىٰ أفئدةِ مُنحلّةِ المسلمين».

إن الشريعة كما تزدحم نصوصُها وقواعدُها في رفض هذه العوامل المنحرفة؛ فإنها ترسم للمسلم هديا سويا يرفض التبعية والمحاكاة والانحراف ودعت إلىٰ (تعريب) الأمة فيما أقره الإسلام من فاضل أخلاق العرب وصفاتهم وسماتهم وذلك من طرق شتىٰ:

١- تعريب لسان الأمة من رطانة الأعاجم إلىٰ شعار الإسلام ولغة القرآن لسان العرب؛ «لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلىٰ فقه أقواله، وفقه السنة هو الطريق إلىٰ فقه أعماله».

٢- تعريب أخلاقها وذلك بالمشابهة للسابقين من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ومن تبعهم بإحسان.

وفي هذا نظر إلىٰ فقه السلف حيث فضّلوا كثيرا من غير العرب علىٰ العرب لتعريب أخلاقهم ومشابهتها بأخلاق السلف الصالح.

قال الأصمعي رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: «عَجَمُ أصبهانَ قُريشُ العجمِ».

ولما ساق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ آثارا مهمة علىٰ هذا المنحىٰ؛ قال: «إن الأمة مُجمِعة علىٰ هذه القاعدة وهي: فضلُ طريقة العرب السابقين وأن الفاضلَ من تَبِعَهم».

٣- تعريب اللباس الذي هدىٰ إليه الإسلام؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: «وقال الفقهاء من أصحاب الإمام أحمد وغيره منهم القاضي أبو يعلىٰ وابن عقيل والشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلي وغيرهم في أصناف اللباس وأقسامه: ومن اللباس المكروه ما خالف زِيَّ العرب وأشبه زي الأعاجم وعادتهم، ولفظُ عبد القادر: ويُكره كل ماخالف زِيَّ العرب وشابه زِي العجم».

وفي كتاب أمير المؤمنين عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وعليكم بالمَعَدِّيَّةِ وذروا التنعم وزي العجم».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: «وهذا ثابتٌ علىٰ شرط الصحيحين وفيه أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أمر بالمعدِّية وهي زي بني معدّ بن عدنان وهم العرب فالمعدية نسبة إلىٰ معدّ ونهىٰ عن زي العجم وزي المشركين وهذا عام كما لا يخفىٰ».

فالزموا لباسكم يا أهل الجزيرة، وذروا عنكم ظاهر الإثم وباطنه في لباس الكفار في القبعة والبنطال وما هذه الفتنة التي نشرت بين شَبَبَتِكم في لبس القبعة بعد عام ١٤١١؛ إذ نثرت في الأسواق وعرضت بأرخص الأسعار، وتنافس في لبسها الأطفال والشباب، وهي في حقيقتها شعار تعبدي للنصارىٰ

كالصليب والزنار، فضلا عن أن تكون من التشبه بألبسة الكفار، فهي رمز تحول في الرجال كالمطالبة بخلع الحجاب رمز تحول في النساء.

وأقول: إن هذه «القبعة» التي راجت بين المراهقين والأطفال هي رمز علني للتحول فلا يجوز استيرادها ولا بيعها ولا لبسها، ويجب منعها وواجب علىٰ ولي أمر الطفل والشاب منعه من لبسها فاتقوا الله في مواليدكم يا أهل الإسلام.

وقد أفردت رسالة بشأنها؛ لخطرها. والله المستعان.

٤- التاريخ الهجري: الزموا التاريخ الإسلامي «التاريخ الهجري» في جميع مواقيت عباداتكم ومعاملاتكم وشؤون حياتكم فهو شعار إسلامي ينادي علىٰ إسلامكم ولا ترضوا به بديلا ولا مساويا فإنه لمواقيتكم كشعار الأذان لصلاتكم؛ ذلك أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما استشار أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ ليجعل وسيلة إعلام ونداء للصلوات الخمس أشار بعضهم بضرب الناقوس وبعضهم بكذا.. فلم يرض النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بشعارات الكفار حتىٰ فرض الأذان في القصة المشهورة.

وكذلك الشأن في التاريخ، فإن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ استشار في ذلك فأشار بعضهم بتاريخ النصارىٰ وبعضهم بكذا.. فلم يرض رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ بشعارات الكفار حتىٰ أشار علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ باتخاذ الهجرة بداية للتاريخ فسُرَّ بذلك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وأجمع عليه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وجرىٰ عليه عمل المسلمين.

١٥. وإذا كان الإسلام قد محا العصبية القبلية الممقوتة؛ فإن المحافظة علىٰ سلاسل النسب مطلوبة والمحافظة عل نقاء النطف وأنسابها لا تعني العصبية بحال.

وعليه؛ فينبغي سدّ منافذ التهجين لأول رائد للإسلام: العِرق العربي لتبقىٰ سلاسل النسب صافية من الدَخَل وملامحُ العرب سالمةً من سُحنة العُلُوج والعَجَم صانها الله من تلكم الأذايا والبلايا.

واعتبار الكفاءة له آثار حسان في التربية وعزة الدار وقوام الأخلاق ومناهج الشرف.

"وأما التساهل في ذلك فله دَخَل عظيم في انحلال الأخلاق لأن للتزوج بمجهولات الأصول أو الأخلاق، أو بسافلات الطباع والعادات، أو بالغريبات جنسا مفاسدَ شتىٰ لأن الرجل ينجرُّ طوعا أو كرها لأخلاق زوجته فإن كانت سافلة يتسفّل لا محالة وإن كانت غريبة يتبغّضُ في أهله وقومه وجرّته إلىٰ موالاة قومها والتخلق بأخلاقهم حتىٰ يكون أطوع لها من خلخالها.. ".

ولشاعر الحرم علي بن زين العابدين قصيدة معبرة في التحذير من الزواج بالأجنبيات، منها:

تعرفون هذا شاعر الحرم؟ هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات مجهولًا هذا أول ما عرفته عرفت له قصيدة أثنىٰ فيها علىٰ شرح العلامة ابن المانع علىٰ الواسطية طبعها الشيخ بن مانع مع شرحه في الآخر علىٰ الغلاف، قال وقد قال فلان وسماه أحد طلبة البعثة السعودية في مصر وذكر قصيدة في مدح الواسطية وشرحها، ثم بقي هذا الرجل مجهولًا حتىٰ توفي قريبًا، ولم أعرف وجوده إلا لما وقفت علىٰ نعيٍ له، وكذلك جهله غيري، فهذا الرجل قصائده مندثرة.

وتعرف عليه الشيخ بكر رحمة الله علىٰ الجميع بأخرة، وكتب إلىٰ الشيخ بكر قصيدة في مدح كتاب «التعالم» نشرت في طبعة متأخرة من كتاب التعالم، هو شاعر كبير في قصائده التي نشرت ومنها هذه القصيدة، نعم، كان في الطائف هذا توفي في الطائف كان مقره في الطائف.

ولشاعر الحرم علي بن زين العابدين قصيدة معبرة في التحذير من الزواج بالأجنبيات، منها:

العيون الزرق لا تعجبني ... إنني أهوىٰ العيون العسلية
يافتاة الغرب لا تندفعي ... إنني أهوىٰ فتاتي العربية
دينها الإسلام قد هذبها ... وارتضاها عفة فضلىٰ تقية
صاغها الله عفافا وتقىٰ ... وانتقاها من خيار البشرية
حرة النفس منيعا عرضها ... سمحة الأخلاق من رجس نقية
الوفاء المحض من شيمتها ... والحياء الحق سيماها الجلية
رقة في حشمة في طاعة ... تلك والله صفات قدسية
لم تكن قبلي لغيري متعة ... لا ولن تغدو لغيري في العشية

١٦. لا تكون جزيرة العرب سردابا للمولّد وألسنة الأعجمين.

بما أن لسان أهل هذه الجزيرة هو لسان العرب وبه نزل القرآن فهو لغة الإسلام ومفتاح المكتبة الإسلامية فإنه لا يجوز تهجين اللسان العربي ويجب تنشيط حركة التصحيح للسان العرب وأن يكون أهلها في منأىٰ عن هجنة اللسان وأن تبقىٰ عروبته كلمة باقية في أعقابهم ينشرون في العالم تعريب اللسان ولا يمتد إليهم تغريب له بحال.

واعتبر في الحال الحاضرة – علىٰ الرغم من لوثة العجمة وهجنة العامية – فإنه لم يزل عندهم بقية

صالحة من السليقة العربية فإذا قرؤوا النص من كتاب أو سنة فهموا المعنىٰ المراد باطمئنان بعيدين عن رسوم التدقيقات والإشكالات التي تفسد المعنىٰ ولا يشير إليها المبنىٰ خلافا لغيرهم ممن خاضوا هذه المحالة فتشتّت منهم الأذهان وعميت عليهم الأفهام. والله المستعان.

١٧. وبما أن الاسم عنوان المسمىٰ وشعار يدعىٰ به المرء في الآخرة والأولىٰ والاسم كالثوب إن قصر شان وإن طال شان ونحن مأسورون في قالب الشرع المطهر ومن أبرز سماته ألا يكون في الاسم تشبه بأعداء الله ولا متابعة للفساق فعلىٰ المسلمين عامة وعلىٰ أهل هذه الجزيرة بخاصة العناية في تسمية مواليدهم بما لا ينابذ الشرع فإذا أتىٰ إليها الوافد أو خرج منها القاطن فلا يسمع الآخرون إلا عبدَالله وعبدَ الرحمن ومحمدا وأحمدَ وعائشةَ وفاطمةَ.. وهكذا في الأسماء الشرعية في ألوف مؤلفة زخرت بها كتب السير والتراجم.

أما تلك الأسماء لأمم الكفر: فكتوريا، سوزان.. فليس لها عند أهل الإيمان نصيب ومثلها أسماء الفساق الأخرىٰ التي ليس لها بهاء ولا لياقة.. وهكذا في سلسلة يطول ذكرها.

أقول: علىٰ أهل هذه الجزيرة أن يتقوا الله وأن يلتزموا بأدب الإسلام وسنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأن لا يؤذوا السمع والبصر في تلكم الأسماء المتخاذلة وإن التساهل في الأسماء كالتساهل في الأفعال كل منهما قبيح وعلىٰ جهة الأحوال المدنية وضع الضوابط الشرعية لذلك.

١٨. هذه الجزيرة مضافة إلىٰ أهلها: العرب والاعتبار لهم بالإسلام فلتبق للعرب والمسلمين نسبا ولسانا ودارا حتىٰ لا تكون الإضافة شبه صورية وإنه لِعالي مكانتهم تعقد الآمال بناصيتهم.

والذي ينبغي أن تأتي وفود الإسلام إلىٰ معقله جزيرة العرب حجاجا أو عمارا أو عاملين فيرتوون من التوحيد الصافي من أي شائبة ليعودوا إلىٰ أهليهم من المسلمين: دعاة توحيد وبناة عقيدة.

١٩. ويجب أن يكون دور حرّاس الشريعة في هذه الجزيرة من منجزات الحضارة الحديثة في الطب والهندسة والاقتصاد.. هو دور الأصالة والتجديد لا دور التبعية الماسخة والوأد الخفي - بل والعلني - لمقومات البلاد الأساسية: الإسلام، وخوض عجلة الحياة في الأوحال.

وعليه؛ فبعثُ روح الاكتساب والعمل والجد والتحصيل والتخصص في هذه العلوم من أهم المهمات لبناء الحياة في هذه الجزيرة علىٰ يد أبنائها فهم أسلم لها وأصلح لحالها من الدخلاء عليها.

٢٠. حمل أهلها علىٰ الحماس الديني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعميق التقوىٰ والشوق

إلىٰ الترقي لحماية الشريعة.

ومن الأوليات: شكرُ هذه النعم ببسط لسان التذكير وقلم التدوين بما أفاء الله عليهم وأنعم من هذه الخصائص وأن من شكرها المحافظة عليها وحفظها وإعمال الحياة في قالبها وأن أي تشويش عليها خدش لها ونقص لشكرها وأخيرا غيابٌ لمزيةِ القدوة.

ومن لازم ذلك الإجهاز علىٰ أي عادة أعجمية أو عامل حضاري غُثائي وأن يبقىٰ حق الامتياز في هذه الجزيرة إسلاميا محضا يرفض كل تقليد دامس ولا يقبل يد أي لامس. والله الهادي إلىٰ سواء السبيل.

بكر بن عبد الله أبو زيد.

وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.